

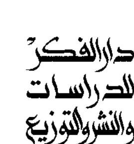
محمد المنسي قنديل

من قتل مريم الصافي؟

من قتل
مريم الصافي ؟

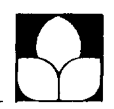
الغلاف والخطوط: عـماد حـليم

الطبعة الأولى
القاهرة - ١٩٨٦

دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع
القاهرة - باريس

القاهرة: ش هشام لبيب - رقم ٢٥/٤٢
مدينة نصر - المنطقة الثامنة



محمد المنسي قنديل

من قتل مريم الصّافي؟



خمس قصص وأغنية الأبي

١

قال الرجل الذى بجوارى : آلام المعدة لا تطاق . أود البكاء لكننى أشعر بالخجل .

تجمعت نقاط العرق على جبينه الشاحب . هززت رأسى آسفًا وابتعدت عنه . وبرغم الزحام استطعت الوقوف بجانب فتاة جميلة . وعندما كان الترام يندفع للأمام كان جسدانا يتلاصقان برهة . لمست ذراعى ذراعها . كانت باردة كأنها ريح البحر .. تقابل وجهانا قلت لها فجأة ..

– إننى وحيد تمامًا .. وفى حاجة ماسة إلى فتاة .

لم يبد عليها دهشة كبيرة . ظلت واقفة بجانبى حتى جاء الكمسارى . قطعت تذكرتين لى ولها . ابتعدت إلى الجانب الآخر ، وهى تهز كتفيها . كان الترام يهتز أيضًا . وصوت اصطكاك الصنج مثل استغاثة طفل صغير . خلا أحد المقاعد . دفعت الرجل الغريب دفعة خفيفة واحتللت المقعد ، سمعته وهو يدمدم فى غيظ

مكتوم . نظرت من النافذة فاجأتنى المدينة الغريبة كأنما تتربص بى . حتى إننى تساءلت بمرارة ..

– لماذا جئت إلى هنا .. لماذا ركبت هذا الترام ..

أعلن بائع كثيف اللحية يرتدى عقالا فوق رأسه أنه يهب الجميع آية الكرسى وعدية ياسين . تحدث عن مزاياهما الربانية العجيبة . ثم هتف موضحًا أنه لا يبيعها ، لأن كلام الله لا يقدر بثمن ، لكنه يطالب بهبة بسيطة لقاءهما .

دار الترام نصف دورة حتى حسبته سوف يخرج من فوق « الشريط » .. ودخل شارعًا أكثر ضيقًا . هبطت الفتاة الجميلة . هبط الرجل . سار وهو يترنح حتى وصل إلى الرصيف ، جلس عليه ثم أجهش فى البكاء . ظل الترام يخوض طريقه بصعوبة خلال الشارع الضيق والجدران تكاد تطبق على مقدمته . كان البائعون يحملون قدورًا ضخمة . ينثرون « حمص الشام » بعرض الشارع . تنفرط العقود الصفراء ما بين شقوق الأحجار وزوايا « الشريط » . نهض الرجلان – الذى أمامى ، والذى خلفى – . وهبطا .. ولم يصعد أحد ..

الجدران تحمل نقوشًا مملوكية قديمة . تهمى علينا رائحة ثقيلة .. خليط من العفونة والغبار .. شقوق غائرة تمتد . عبر البيوت والحانات والوكالات . من خلال ظلمتها تلمع عيون الفئران وهى تتقافز فى عصبية . المشربيات القديمة محطمة . مائلة على وشك الإنهيار مثل وجه مجدور . يتصاعد من فتحاتها أعمدة الغبار الرفيعة . مآذن مكسورة تعشش عليها طيور سوداء عندما يفزعها صوت الترام تحلق وهى تطلق صيحات غريبة . نباتات متسلقة تصعد فوق واجهة المساجد والبواكى كأنما تتمنى أمنية مستحيلة . وظلمة الشارع تزداد . ويهبط كل الركاب . ولا يبقى سواى . لا يبقى سوى الكمسارى العجوز والسائق العجوز .

اقتربا من بعضهما . أخذا يتحدثان وهما ينظران إلىَّ نظرات خفية ويضحكان فى صوت خشن . كانا يعرفان كل شىء يعرفان مقدار وحدتى . وأنه ليس ثمة محطة أهبط إليها ..

٢

كنا – أنا وهى والعصافير – لا نأكل إلا قليلا حتى نشبع ..

كانت الريح إذ تهب . تبعثر خصلات شعرها مثل شبكة صياد فقير . وتبعث داخلى شعورًا بالحسرة .. وتحرك أجنحة العصافير فتطير مبتعدة حتى تغيب عن أبصارنا .. كانت تقول لى .. الأحلام الكثيرة تورث الضجر ..

كان الشتاء يأتى فتختبئ هى خلف الفراء الثمين . وأسير أنا وحيدًا فى الطرقات الخالية . أحس بمذاق الرذاذ المالح . وأحلم بالأمطار الصافية الزرقة . فلا أجد إلا العصافير التى ماتت من الصقيع مسجاة على الأرصفة ..

قالت .. لن أكون لك . كف عن أن تحلم بى دائمًا ..

كنت – فى اللحظات القليلة التى أنام فيها – أحلم . أرى العصافير الميتة وقد نفضت ريشها ، وأخذت تصوصو بصوت عال كأنها تستغيث . أرى منتصف الأرض ينشق عن شمس كبيرة زاهية مثل التى يرسمها الأطفال بالألوان المائية .. وتهبط أمطار صافية الزرقة لها مذاق السكر النبات .. ويمرق قطار خلال نفق أرضى يعبر الحدود بلا عوائق .

وحين أستيقظ سريعًا من النوم . أرى الشبورة الصباحية مثل بودرة

منثورة ، وقطرات الطل ترسم فوق الزجاج المغبش خطوطًا متعرجة قبل أن تنحدر إلى أسفل . وتذوب .

٣

منذ اللحظة التى تحولت فيها إلى حصان ، وأنا أحلم بقطعة من السكر .. حتى إن هذا الحلم شغلنى عن رغبتى الملحة فى العودة إلى هيئتى الآدمية ..

لم أكن أكف عن التجوال . فى مواسم الخضرة يضع صاحبى أمامى كومة من البرسيم الأخضر . وفى مواسم الجفاف . يضع جوالا من التبن الأصفر . وعندما كنت أبدأ الأكل أتخيل أسنانى وهى تجرش قطعة السكر فتنبعث رعدة فى أعماقى ولا أستطيع الأكل . ظل حزام « العرض » يحك فقرات ظهرى حتى صنع جرحًا مستطيلا . لم أكن أراه . كنت أحس بالذباب وهو يحط عليه ويلغ فى دمى . طوال النهار يلسعنى صاحبى بالسوط . ويحثنى على الإسراع دون داع . وفى المساء يجلس أمامى ويبكى .

يأتينى النوم وأنا واقف . وجميع قوائمى متصلبة ولا تأتينى الأحلام .. وعندما أرقد على الأرض وأثنى قوائمى تحتى . لا أنام . عندما أحاول أن أتذكر أى وضع كنت أنام فيه أثناء هيئتى الأولى .. لا أتذكر ..

لا أكف عن التجوال . فى الصباح تتسع شوارع المدينة . وتصبغ الشمس ظلى فأراه منحنيًا . تضيق الشوارع . تصبح حارة سوداء مظلمة . واسطبل مزدحم بالروث ورائحة البول . وعندما يرانى الذباب الأزرق ذو الأجنحة المدببة يرتفع من فوق كريات الروث ويحط على جرحى . أرى صاحبى وأولاده

المرضى . وزوجته المريضة . جالسين فى أحد الأركان حول مصباح غازى يتخاطفون الأرغفة ويتبادلون كلمات السباب . فأغفو قليلا وأحلم بقطعة من السكر .

٤

قالت : إنها قضت معظم المدة الماضية فى الإسكندرية . وإن هذا هو سبب سمرتها .. سألتها .. هل استمتعت بوقتك ؟ .

قالت بحيادية وهى تمط شفتيها : يعنى ! ! ..

كانت السمرة المشربة بالحمرة تكسبها فتنة من نوع خاص . تأملت يديها الموضوعتين فوق المنضدة . وأصابعها تتداخل وتفترق . لمحت فى الأصبع الأكبر خطًّا أبيض . منطقة لم تمسها الشمس ولم تكتسب السمرة ..

قلت : عندما تنعكس الشمس على شعرك .. يصبح لونه أزرق .. يصبح غريبًا ..

قالت : السجن جعلك أكثر شاعرية ..

هكذا تموت المويجات ويسفر الماء عن ارتعاشات فاترة .. النافورة التى فى وسط النهر معطلة . الصبى يبيع عقودًا من الفلّ ، ويبالغ فى الإلحاح ، والجرسون يحمل ابتسامة ثقيلة ويضع فوق المنضدة فواتير باهظة .

قالت : هل تنوى العودة مرة أخرى ..

لم أعرف إن كانت تسخر أم لا ..

قلت : هل أنت خائفة ؟ ..

مطت شفتيها مرة أخرى ..

كنت قد أهديتها دبلة من الفضة الخالصة . كانت تضعها فى يدها اليمنى وتقول إنها تعوقها أحيانًا عن الكتابة . لكنها لم تخلعها الآن .. يدها اليمنى خالية .. يدها اليسرى خالية لكن فيها هذا الخط الأبيض الغريب .. كنت أمسك أصابعها وأظل أعد عليها . أحبك . أحبك . أحبك . فتقول وهى تبتسم : عشرة فقط . أردد وأنا أضحك ماذا أفعل ليس لك إلا عشرة أصابع ؟ ..

تساءلت :

– هل كانت المدة طويلة ؟ ..

قلت : أنتِ تعرفين هذا خيرًا منى .. فى الداخل الأيام كلها متشابهة .

–كيف الحال فى العمل ؟ ..

– متعب قليلا . لكنه طيب على أى حال ..

أمسكت أطراف أصابعها . كانت باردة وأحسست رعدتها الخفيفة . لعلها كانت تفكر . هل تتركها فى يدى أم تسحبها . تركتها مترددة . تحسست بأصبعى أثر الخط الأبيض .. كان ناعمًا مثله مثل باقى الجلد . فى نفس الاستواء ونفس درجة الحرارة .. لا شىء .. غير أنه أبيض وبقية جسدها تغطيه سمرة مشربة بالحمرة ..

سحبت يدها وتناولت كوب الماء .. رشفت رشفة صغيرة . وضعت الكوب وأبقت يدها بعيدة عن متناول يدى . قالت وهى تتظاهر بالإهتمام البالغ :

– هل آذوك ؟ ..

قلت .. ليس كثيرًا .. يكفى أن أحكى يومًا واحدًا لتتشابه بقية الأيام .. ولكن أنت .. ماذا فعلت فى الخارج .. مطت شفتيها .. يعنى !! ..

قلت مباشرة : هل آذوك ؟ ..

قالت فى حدة : من تعنى ؟ ..

كنت أود أن أقول لها هل تحبيننى . أسألها . أين خاتمى .. استحلفها أمازلت تؤمنين أننى أفعل الصواب ؟ . نظرت فى الساعة الصغيرة فى يدها .

– سوف أتأخر ..

فكرت .. ياه لهذه الدرجة .. قلت لها .. سوف أوصلك .. قالت .. سوف يرانا الجميع . أنت ولا شك مراقب ..

نهضت وتناولت حقيبتها . رأيت الخط الأبيض وأدركت أنه حقيقة . مثل النهر الميت . والشمس البعيدة والفل الذابل . مثل السرير الواطئ الخشن . والجردل الذى يفوح بالنجاسة . والنافذة الصغيرة التى تبين جزءًا من السماء ولا تهب خلاصًا .. مثل صوت المزلاج فى منتصف الليل والفواتير الباهظة . ومحاضر التحقيق الطويلة ، وابتسامات الشماتة ، واعتذارات الخوف .. قلت ..

– فقط .. سوف أوصلك بالتاكسى ..

سرنا معًا . وقفنا أمام الكازينو ، وأخذت أشير إلى كل سيارة عابرة . تمهل أحد التاكسيات وسألنا السائق عن وجهتنا أولا . ركبت هى . وضعت أطراف أصابعها فى يدى .. قالت سوف أتصل بك .. قلت لها فجأة :

– هل تزوجت ؟ ..

أغلقت الباب . رفعت أصابعها وبدت كأنها على وشك الصراخ . لم تفعل . قالت كلمة أوكلمتين . لم أسمعها لأن التاكسى كان يزوم .. ومضت ..

٥

كانت جدتى قبل أن تموت تهوى تربية الكتاكيت . حتى أن جدى تركها من أجل هذه الهواية وتزوج بأربع نساء أخريات . لكنها ظلت وحيدة مثل صبارة عجوز . تجلس فى الشمس تنثر الكتاكيت وتنثر حبات الذرة المدشوشة ، والصواء يتعالى مثل نحيب النسوة الخافت . وهى ترقبها كأنها على ميعاد حتى تأتى « العرسة » تسمع جدتى دبيب أقدامها ، وترى بريق عينيها كأنها عيون الذئاب يتقوس جسداهما معًا . جسد جدتى اليابس الواهن العضلات . وجسد « العرسة » الغضروفى اللين . حتى أنهما يصرخان فى وقت واحد . والكتاكيت فى المنتصف ترعى فى بلاهة . كأن جدتى تقدم قربانًا لقوى لا تعرفها . لعل جدى اكتشف ذلك وهرب .

وفى ليالى البرد الموحشة كانت تصرخ كأنما تناديها . تستيقظ جدتى وتظل تنتفض حتى الصباح . وعندما جاء الموت الرقيق البالغ العذوبة ، بدت جدتى – وهى مسجاة – هادئة وديعة كأنها كتكوت مستزف الدماء . وجاءت « العرسة » ونامت جنب قدميها فى صمت حتى جاء المساء .

٦

أبوك يهرف كثيرًا .. » ..

تقول أمى ذلك فى ساعات الضنك . لكنها لا تتمالك ابتسامتها عندما تراه وقد انخرط فى الغناء على دقات النول بصوته الخشن .. « آه يا نطاسى » ..

خاب الترياق .. ومت بسم الزمان » .

عالم القاعة الرطبة موحش . وكان هو يمتص هذه الوحشة ، يلونها بالأحلام الغريبة ، لم يكن يملك شيئا .. لكنه حين يفرد ذراعيه تبدو يداه الكبيرتان الغليظتان ، كأنهما تحملان فى تجاعيدهما شذرات الأيام والشهور والسنوات ، وفى خشونتهما ميراث العمل الدائب . وعشرات المهن التى تقلب فيها . كأنما يستطيع أن يحمل هذه البلدة الصغيرة – التى شهدت أيامه الأخيرة – فى كف واحدة . يضعها جنب القرى والبلاد التى جابها عبر البرارى وبرك الصيادين ، وأنهار الملح ، وأشجار الدوم ، ورائحة الروث والتمرحنة . ما بين حافة النهر وحد الصحراء . جوعًا وعشقًا وغربة . وعندما يدخل القاعة حيث ينصت نوله الوحيد وسط بقايا الأنوال المتكسرة . وآثار « الصنايعية » الذين هجروا الكار . ويدق الدف بشدة فتجاوبه كل الدفوف يحلم أبى بالصنايعية القدامى ، وهم يرفعون أيديهم مرحبين .. كنا فى انتظار دقتك ياعم منسى .

هكذا يحدثونه .. فيحدثهم أبى .. يا اخوان . اليوم الذى يضيع يكلفنا الكثير. لكنه لا يضيع هباء . هكذا يواصل أبى الحديث . كنت صغيرًا حين تركت البيت .. كان بيتًا بسيطًا تغطى واجهته أشجار الجهنمية الحمراء ، وأمامه بئر يسكنها عفريت صغير. لكن العالم كان براحًا ، وكنت كالمهر الشارد . وعندما عدت وجدت أبى قد مات ، والبئر قد ردمت . وأدركت من يومها أنه لن يكون لى بيت . كنت أعمل وأنام مكان عملى . هكذا يتحدث أبى .. وأنا جالس أمامه فى أحد أركان القاعة أترقب حركات يده وهى ترمى المكوك لتلقفه يده الأخرى . وتتواصل الدورة . لكن المكوك كان يخونه فيفلت ويقع فى

المنتصف . أسارع بمناولته إياه ، ثم أجلس صامتًا حتى لا أقطع سيل الحلم المتدفق .

ثم ذهبت للجيش .. قادونا إلى أقصى الشمال ، وقالوا إن الأتراك والألمان سوف يهاجمون مصر . وكان الضابط يحبنى ، فقال إنهم يخدعوننا وإنهم أخذوا السلطان أسيرًا . وهربت فى أثناء الليل حتى قابلت امرأة من الغجر .. وظللنا ننام بين الزرع الشيطانى ثلاثة أيام متواصلة . كنت أضع رأسى فوق صرتها وأتطلع للسماء فأرى القمر مثل كرة من نار . ثم تركتنى لتلحق بأهلها وعاودت السير حتى نسينى الجيش .

يتحدث أبى وأنا أهمهم مبهورًا . أرى الخيوط وهى تتعانق ، والأقمشة البهية الألوان تتخلق ، ويحلم أبى أن كل رفاقه القدامى يتوافدون على القاعة حتى الذين ماتوا وهم منكفئون على النول . فيهتف مرحبًا .. يارجالة كنت أصغر الصنايعية ، وكنت أمهرهم . جاءنى حاكم البلدة التى أعمل فيها ، وكان تركيًّا أبيض الوجه . قال لى هذه لفات الحرير ، أنسج لى منها ثوبًا يليق بمقامى ، وكان الحرير غريبًا يارجال ، ليس له لون محدد لكنه يشع ضوءًا كالجوع الدائم والرغبة الدائمة . منذ أن بدأت العمل فيه والقاعة تتوهج بالأضواء القريبة ، وعندما يزول النهار ويأتى الليل . تظل الشمس معلقة فوق قمة نولى . كان هناك اللون الأصفر الشبيه بالأسى والندم . والأحمر الدافئ كأنه طرف لسان المرأة الغجرية ، والأخضر مثل الزرع الشيطانى الذى دهسه جسدانا . والأزرق كأنه بحر الله الواسع وكأنى لا أكف عن العوم . ولكما نسجت ذراعًا أوشكت على البكاء .. حتى أننى فكرت أن أحمل نولى وأهرب بعيدًا حيث أختبئ وأظل أنسج فى هذا الثوب ما بقى لى من عمر . لكن الثوب لم يكد يستكمل حتى جاء

التركى وحراسه وانتزعوه منى عنوة ، ولم يعطونى حتى عرق يدى ، لكنهم تركوا داخلى عشرات النجوم الصغيرة الملونة . هكذا يتحدث أبى .. لقد صنعنا الكثير وسوف يتذكرنا الجميع بالخير .

١٩٧٦

البراري

شمس الشتاء الواهنة خلف ظهر العمدة . البلدة خلف ظهره أيضًا .. والضابط أمامه . الجنود متكئون حول العربة ، معفرون لحد الإنهاك . بضع من الأهالى يتسكعون . يبحلقون فى فضول أبله . ربع ساعة منذ مضى الغفر وغابوا خلف بيوت القرية المحنية . العمدة يداعب لحيته محاولا أن يبدو مهتمًا . الضابط يدخن فى عصبية . أسفل عينيه نصف دائرة زرقاء همهم العمدة ...

– صدقنى .. فى الأمر بعض من الخطأ ..

أومأ الضابط . كانت العربة خلفه كالحربة فى الظهر . طلب العمدة منه الجلوس للمرة الرابعة .. رفض رغم مفاصله المتيبسة . عاود العمدة الهمهمة .

– يعنى هو فى حوالى الثلاثين ..

تضايق الضابط . رمى بقية السيجارة لم يدهسها ..

–كلا . اسمه عبد المجيد داود . أليس كذلك ؟ .

أكد العمدة .. أجل .. لكن ..

حدق الجنود فى الأهالى فابتعدوا قليلا . قال أحدهم فجأة :

–كيف حال الجيش ؟ .

قال أحد الجنود .. عال .. دون نفس . ثالث بلدة تحمل نفس الاسم .

والبرارى قفر بلا جواب . لهاث طوال الليل . ووجوه رافضة فى الصباح . مع كل حفرة ترتج العربة ويرتج الجنود والصندوق يخزهم كالإبر .

عاد الغفر . ثلاثة منهم يقودون فيما بينهم فلاحًا بالغ النحول . يتطلع خائف للجميع .

أمره العمدة ..

– تقدم يا ولد عبد المجيد .. قف أمام حضرة الضابط .

وجهه أسمر شاحب . لاحظ الضابط آثار الجدرى القديم . كان عمره أقل من الثلاثين . أصيب الضابط بخيبة أمل .. نظر للخلف . بدأ الجنود يستعدون لركوب العربة وقد ازدادوا كآبة . لم يجد بدًّا من إلقاء الأسئلة المعادة .

– هل لك أقارب يحملون نفس الاسم ؟ .

أجاب الشاب خائفًا مرتابًا .

– لا يا بيه .. أنا مقطوع من شجرة (تأمل العربة والجنود فى فزع) ..

أنا عريس جديد يا بيه ..

ضحك العمدة بجفاف . ضربه على ظهره بغير لطف ..

– الله يجازيك ياعبد المجيد .

بحلق الشاب فيهم وأضاف مصرًّا .

– أنا غلبان يا بيه .

شوح الضابط بيده مقروفًا . استدار نحو العربة . لاحقه العمدة كالظل . أعاد ترديد كلمات الضيافة والتمسك ببقائهم دون صدق حقيقى . لم يدر الضابط أين يذهب .. مجرد الابتعاد الشاب واقف مفتوح الفم . كف الأهالى عن

التسكع وأقعوا جنب الحائط . كان حنق الضابط كافيًا حتى يشعر العمدة بالذنب .

دخل الجنود العربة وأحسوا بالتعب . كان الصندوق فى نفس الموضع صامتًا باردًا كأنه ذنب . والعمدة يردد :

– لا يمكن .. والله لا يمـ..كـ..ن .

فكر الضابط . سوف أعود للوحدة . فشلت المأمورية يا افندم وتفضلوا ..

قال العمدة فجأة :

– اسمع يا حضرة الضابط هناك بلدة أخرى بجانبنا (وأشار ناحية الغرب) .

أدار السائق الموتور . أمسك العمدة الباب فى إصرار .

– اسمها « منية السور » أيضًا .. منية سور البر الغربى .

قال الضابط متضايقًا :

– هذه ثالث بلدة تحمل نفس الاسم .

– هنا منية سور البر الشرقى .. صدقنى (وأشار مرة أخرى) خلف هذا الجزء . لا تنحرف وسوف :

قال السائق .. يا فندم سوف نتوه من جديد

قال العمدة .. سأرسل معكم أحد الغفر .

زام الموتور مرة أخرى . إندس الغفير جنب السائق وأصابعه تقبض على ماسورة البندقية . تضاءلت البلدة واكتشف الجنود نفاد ما لديهم من سجائر . عاود الصندوق الاهتزاز . تحول صوت احتكاك مفاصله إلى نوع من التأوه الموجع .

تتوغل العربة . يضمها صدر البرارى البراح . تطل عليهم سماء باهتة بلا انفعال ولا ألفة . قال الضابط :

– هذه البلدة . أهي بعيدة ؟ .

ارتج الغفير . كان مرتابًا . لا يعلم إن كانوا سيعودون به أم لا . شتم العمدة فى سره . .

بلع ريقه وقال بغتة :

–كم كان عمره ؟ ..

قال الضابط بغير ارتياح .. ماذا ؟ .

– هل كان صغيرًا ؟ .

فكر الضابط : هو الآخر يحاسبنى . فكر وهو يعانى من صداع حاد : يبدو أننى لن أستطيع العودة يطوف جندى المراسلة بين المواقع المتباعدة . الهواء الساخن مشبع بالبارود . وتظل السماء حمراء أيامًا متتابعة . تشرق الشمس خلف ظهرنا وتغرب خلفهم . ولا يفصلنا سوى شريط من الماء الأزرق المتسخ ، والسمك الميت ، وشواهد القبور ، ومساحات شاسعة من الكراهية . تمام يافندم . استدعوه عند غروب يوم قاس . كان القائد سمينًا محتقن الوجه . مد يده بإذن المأمورية . ووقف خلفه الجنود الخمسة .

قال بصوته الأجش :

– هنا الاسم والعنوان . سيكون طيبًا أن ترافق أحد جنودك حتى النهاية .

كأن الأمر لم ينته بعد . فكر . إننى حزين ولا أستطيع البكاء . أستطيع الضغط فوق بدال المدفع ، والصراخ بالتعليمات وتلق الجرحى . لكن ليتنى أستطيع البكاء .

قال الغفير فى إصرار فلاحى ..

– هل كان متزوجًا .. ؟

توتر الضابط .. زعق مهدّدًا .

– اسمع لا شأن لك فاهم ..

انكتم الغفير . سأله السائق عن الطريق للمرة الثانية فأشار صامتًا ، مازال جندى المراسلة يطوف بين المواقع المتباعدة . وعندما سقط كان فى انتظاره رسالتان . واحدة من أبيه ، وواحدة من زوجته ، كتبها ابنه فى الصف الرابع الابتدائى . وظل الجنود صامتين . لو استطعنا العودة به لأقمنا قبرًا صغيرًا وشاهدا فوقه خوذة . هنا يرقد رفيق السلاح إسماعيل عبد المجيد داود أسمر الوجه ، مجاملا لدرجة البلاهة . لم يعرف امرأة سوى زوجته . لم يسرق إلا مرتين . دخل السينما أربع مرات بناء على إلحاح من زملائه .. نال ترقية واحدة ما لبث أن نزعت منه لسبب لم يفهمه بالضبط . كان هو وأبوه وأمه وأخوه الأصغر يمتلكون فدانًا واحدًا يقيمون وينامون عليه ، ويستأجرون بجانبه فدانين من الإصلاح . لم يكن الضابط يرتاح له كثيرًا . وظل صامتًا .. صامتًا . وتوقف دمه عن النزيف بعد وقت قصير .. أفاق الضابط . كان الغفير يطلب من السائق الرجوع والاتجاه إلى ناحية أخرى . أوقف السيارة ثائرًا .

– يبدو أننا لن نصل يا فندم .

التفت مغتاظًا نحو الغفير .. هل تلعب بنا .. تعرف الطريق أم لا .

ظل الغفير يشير إلى نفس الاتجاه ببلاهة . أومأ الضابط للسائق حتى يدير مقدمة العربة . ثم هدد الغفير :

– آخر مرة خذ بالك وإلا ..

تساءل الضابط إن كان ثمة طريق محدد للعوده . تكاثفت الأشواك ونباتات الحلفا . أحاطت بالعربة ، كونت ممرًا رفيعًا خانقًا . أحسوا كأنهم يغوصون فى قاع البرارى . قاع من الخضرة المتسخة والهوام الدقيقة . أحسوا بالهواء ثقيلا عطنًا . كان الصندوق تعبًا مثلهم . طال به التطواف ، وتمزق العلم الثلاثى اللون فى أكثر من موضع .

تباطأ السائق . لطمت النباتات والأشواك الزجاج بعنف . وبعيدا كانت الشمس وكانت السماء قال الضابط :

– لماذا ينتشر هذا الاسم هكذا ؟ .

قال الغفير .. اسم من ؟ .

– ميت السور . ثلاثة بلاد ونفس الاسم .

اعتذر الغفير .. فلاحين يا بيه .

حاول الضابط الضحك . اكتشف أن سجائره قد نفدت . ودَّ لو يصل ويرى الأب . سيكون عجوزًا متغضنًا ، ولسوف يصدم من جديد عندما يؤكد النعش الحقيقة ويبدد أى أمل . سيكون هذا رهيبًا لكنها نهاية على أية حال . يحفرون قبرًا ويقيمون صلاة مختصرة دون رصاص .. لعل النباتات تتراجع . لعل السماء تقترب . هتف الغفير :

– أهه .. منية السور .

ارتفعت مقدمة العربة ، وانكشف ظهر البرارى من جديد . قرية أخرى تحمل نفس الملامح ونفس الناس تترامى خلفها حقول داكنة الخضرة . أطل الجنود من الثقوب الموجودة فى جدار العربة ، وكانت القرية تكبر كل لحظة . توقفوا . كانت البيوت وكان الناس يقفون صفًا متجهمًا . نظر الضابط

والغفير ثم الجنود . ظلت عيون الناس – الرجال والنساء – تحاصرهم فى صمت راكد ثقيل . تلاشت فرحة الغفير ، أحس الضابط بعدم الاطمئنان . أحس بالعداء الغامض وهو يتخلق من ترددات الأنفاس .. تقدم ثلاثة من الأهالى . لم يتعرف الضابط على أى هوية رسمية من منظرهم . قال الغفير وقد شابه التردد :

– منية السور .. البر الغربى ؟ .

فجأة . قال أكبر الثلاثة فى حدة :

– اذهب .

ارتد الغفير مصدومًا . تقدم الضابط يحسم الموقف .

– نحن نبحث عن شخص يدعى عبد المجيد داود .. إن .. (أشار للعربة) .

لكن الرجل قاطعه ..

قاطعه بنفس النبرات الحادة :

– اذهبوا كلكم .. اذهبوا بعيدًا :

بهت الضابط .. قال بهدوء :

– نحن نحمل جثة أحد الشهداء .

تقدم رجل آخر وقال للضابط بوجه خاص :

– لا شأن لنا بذلك . اذهب بعيدًا . أرض الله واسعة .

نظر الضابط والجنود والغفير لبعضهم حائرين . والوجوه أمامهم بالغة الصلابة تحمل تحفزًا مجهول المصدر . أحسوا بوطأة العداء حولهم ، والاستعداد للاشتباك فورًا دفاعًا عن شىء لا وجود له .

والغفير يؤكد .. والله هى البلد . جئتها أنا أكثر من ألف مرة ، نصب

الضابط قامته . رفع صوته لعله يذيب حدتهم :

– اسمع . إن معى أوامر عسكرية .. أين أبوه ؟ .

لكن الرجل لم يهتز . لم تضعف نبراته .

– اذهب قلت لك (وأشار إلى ناحية الشمال) هناك بلدة تدعى منية السور ضا ..

زعق السائق فجأة .. كلا .. هذا جنون .

مازال الضابط على استعداد للتفاهم :

– ما اسم بلدتكم أنتم ؟ .

شوح الغفير بالبندقية . منية السور والله . لم يرد الرجل . هبت رياح باردة وظلت العيون ترصدهم تحمل نفس التهديد والضابط يسأل :

– أين عمدتكم ؟ .

لم يتحرك أحد . كفوا حتى عن الكلام . جلس الغفير على الأرض وضرب كفًا بكف . قال السائق فى شبه توسل :

– ننصرف يا فندم . نعود .

قال الضابط هامسًا فى دهشة ممتزجة بالخوف .

– لماذا يتصرفون هكذا .. ؟ .

– إنه الموت يا فندم . سوف نعود لوحدتنا .

انسحب الجنود للمؤخرة . كانوا غرباء والصندوق أشد غربة . ووجه البرارى متجهمًا لا يعطى سوى الحلفا . كانت السماء عكرة والشمس واهنة .. لم يلح السائق . ألقى الضابط نظرة أخيرة لكن أحدًا لم يتحرك . ركب . زعق لغفير وقد نهض فجأة ..

– انتظروا خذونى معكم ..

زفر الضابط حانقًا . نظر فى المرآة الجانبية . كانت البلدة وناسها ساكنين والغفير لا يزال يجرى ويزعق . أحس الضابط بنوع غريب من القهر . برغبة حادة فى النشيج . كان الوجه الأسمر شبه ممزق .

وعندما رد جندى الخدمات الطبية طرف الغطاء . لم يصدق أن ما يراه هو الموت . هكذا . باترًا وسريعًا ولا رجعة فيه . عاد يردد .. لماذا يتصرفون هكذا .. من أين يكتسبون هذه الشراسة ؟ .

قال السائق وهو يشاهد انفعال وجهه :

– يا فندم .

لم يكمل . تضاءل الغفير حتى اختفى . عاودت نباتات الحلفا الارتفاع . قال الضابط لنفسه سوف أعود للوحدة . أدفن الجثة وأقدم استقالتى . هناك زوجتى وهدى الصغيرة وأبى المتقاعد . طلب منه السائق أن يغلق الزجاج الجانبى حتى لا يتسلل الماء إليه . كانت الدنيا تمطر خطوطًا نحيلة من الماء تمتد فوق الزجاج الأمامى . تغبشت صورة الأراضى . أحس بالبرودة . لو أن الليل يأتى وتختفى تجاعيد البرارى . لا تقابلهم بلدة أخرى . تواصل العربة السير بلا توقف ، وحلم فجأة أنه داخل الصندوق المهتز يعانى رغبة من القئ الحادة . وأن إسماعيل يعانقه . إسماعيل بوجهه المهشم الدامى . تتسلل قطرات المطر خلال ألواح الخشب وتسقط فى فمه . يقول له أنت يا أبى . وأنتِ يا أمى . وأنا طفل يتيم .

استيقظ وهو يشير للسائق صارخًا :

– اذهب فى هذا الاتجاه . . .

وتذكر الرجل العجوز والعمدة والغفير والقائد ووجوه الأهالى. زام السائق . يافندم مستحيل لا يوجد بنزين . أشار له فى صرامة .

– اذهب ..

سمع الجنود صوت الضباط المضطرم . أوشكوا هم أيضًا على الصراخ . أى نوع من الصراخ . وبدأت قطرات المطر تدق فوق رءوسهم دون أن تخفى صوت الصندوق . كان يهتز بشدة حتى خشوا أن يتفتت فجأة ويظهر إسماعيل ممزقاً دون كفن ...

من الكوة الصغيرة خلف السائق فوجئ الضابط بأحد الجنود يطل عليه .

قال فى توسل حقيقى :

– يافندم ندفنه هنا .

التفت إليه مذهولا . استطرد الجنود .

– كلها أرض مصر (وأشار بعينيه إلى البرارى والمطر والحلفا) كلها مصر .

أشاح الضابط بوجهه . كان المساء يسح فوق الزجاج . أغلقت الكوة . ضاعف السائق السرعة .

لطمت الحلفا الزجاج ، وأحس الضابط كأنه يصفع . هبطوا فى منخفض أرضى . ارتفع رشاش من الماء المتسخ ، لم يعد يرى شيئًا . وفكر . هل أنا محموم . أصبحت الأرض لزجة والعجل يلف بصعوبة . أزاح الذراع كمية أخرى من الماء .. وظهرت البلدة الجديدة .

توقفوا أمام البيت الأول . ضغط السائق النفير فى عصبية . دوى الصوت كالعواء . شق الصمت ولم يرجع صدى ، نظر الضابط وهو فى أول الشارع المؤدى إلى قلب البلدة . وضع يده على خاصرتيه منتظرًا . ظل الجنود صامتين

يحدقون فى الصندوق وقد توقف أخيرًا .. أخيرًا عن الحركة . صفعت موجة من الهواء البارد الضابط بقسوة . خفت حدة المطر . توقف السائق مستندًا إلى حائط مبلل . قال :

– يا فندم (لم يلتفت الضابط نحوه) .

لا أحد هنا .

أنزل ذراعيه فى وهن . ظل يحدق فى الشارع الخالى الموحل حتى تداخلت كتلة البيوت .. والسائق يتوسل :

– نعود يا فندم .

كان ممتقعًا . بدأ السير فى إتجاه القرية . حاول السائق الكلام أو السير خلفه لم يستطع .. على الجانبين تحدق البيوت ببلادة . الأبواب مفتوحة وبطون الدور مظلمة . المصاطب خالية متآكلة يتناثر عليها بقايا أوراق عجفاء مبللة . أكوام الزبالة والروث والسباخ بلونه الأزرق القاتم . سيقان الشجر المقطوع والمحاريث القديمة أزدادت دوامات الريح فوق الجدران المتهالكة . امتزجت نقوش الحج والانتخابات . المقهى الصغير المغطى بالسناج ليس به إلا بضع من الكراسى المحطمة . عند المنعطف الأول تعثر فى جثة كلب مبقور البطن . أوشك أن يتقيأ .. ضاقت الطرقة وانحنت البيوت فوقه . أصبحت العربة نائية ، والسماء أشبه بجوف صندوق خشبى يحتويهم كلهم . سمع صوتًا فالتفت فزعًا لكنها الريح تمرق من شق جدار . كانت تعوى . سار عبر المنعطف الثالث والرابع وتشابكت المعالم كالقبضة المحكمة . فكر . لن أستطيع العودة لن يأتوا لإنقاذى .. وعندما نفذ من المنعطف الخامس وجد نفسه فى ساحة واسعة مليئة بالطين وبرك الماء . خلع القبعة وأحس بقطر المطر ينحدر فوق خديه دمعًا باردًا .. أحس بالتعاسة

أيضًا .. توقف قرب المنتصف وهو يزعق ..

– يا عبد المجيد ياداود .. معى ابنك .

لم تجبه الريح ..

– معى جثة ابنك ..

لم تجبه البرارى .

١٩٧٢

أغنية المشرحة الخالية

أخذ فمى يتلوى باحثًا عن النطق الصحيح .. تهشمت آلاف الكلمات بين أسنانى .. تناثرت آلاف المصطلحات على أعضاء الجثة المختلفة .. كانت مسجاة أمامى فى استسلام أبدى .. والصمت يطفو فوق المشرحة .. يغلف كل شىء .. ذهبت ضجة الزملاء الأجشة .. وثغاء الزميلات الذى لا ينتهى .. عبثت يدى بلا مبالاة فى عضلات الجثة الممزقة .. عدت أحدق فى كتاب التشريح العتيق . فاجأنى الصوت الذى أعرفه جيدًا وأتوقعه .. ومزق صمت المشرحة :

– مساء الخير يا دكتور ..

عم أحمد فراش المشرحة .. عرفت ذلك دون أن أرفع رأسى .. كان يعرف جيدًا أننى لست دكتورًا .. وأننى مجرد طالب بالسنة الأولى ..

– الدكتور ينوى الجلوس قليلا .

القطار الذى يقودنى إلى بلدتى ذهب .. لن يأتى القطار الآخر قبل ساعتين .. لم أتناول الغذاء بعد .. فى جيبى خمسة قروش .. وورقة قديمة بالية .. رفعت رأسى إليه .. الابتسامة الملتصقة على شفتيه تكاد تسقط على الأرض ، عيناه تضيق عن نظرة متحفزة .. قلت :

– باقى على موعد إغلاق المشرحة ساعتان .. أليس كذلك ؟ ..

اتسعت ابتسامته .. لابد أنه اكتشف إننى غبىّ ..

– نحن كلنا تحت أمرك .. للصبح لو أردت .

لكنى كنت مصممًا ألا أفهم .. لم تزل أمعائى تتلوى من الجوع بعد أن تبخرت أكلة الصباح .. صحيح إن الطعمية تحدث نفس التلوى .. لكنها أهون على كل حال من التلوى على لا شيء ..

حدق فىَّ بملل .. هززت قلمى بعصبية .. قلت :

– سأجلس قليلا لن أحتاج إلا أكثر من ساعة ..

سقطت بسمته على الأرض .. تهشمت فوق البلاط البارد .. بدأت خطواته تتراجع .. تمتم بلا أمل :

– على راحتك .. على أقل من مهلك .. ظل يتراجع حتى خرج .. تسللت أصابعى .. تحسست الورقة البالية وهى ترقد فى استكانته .. ألقيت على الجثة نظرة فارغة .. غرقت مرة أخرى فى الكتاب .. طن فى الأفق صوت قطار بعيد .. تذكرت حاجتى إلى الراحة والطعام .. اهتزت صورة بيتنا القديم .. قال أبى :

– ذاكر .. ذاكر يا إبراهيم .

فى صوته رجاء ورغبة ملحة .. تمايل خلفه صف طويل من الوجوه .. وجوه إخوتى الشاحبة .. سألت نفسى : متى تخرج من قاع البئر ؟ .. متى نرى الشمس .. فى الظلام كانت أشباح أفكارى تقيم مأدبتها الخاصة فى داخلى .. تنهشنى .. تلتهم كل أحلامى .. وتقتفى الساعات ضجة الدراجات والقطار .. وكل يوم يضيع يومًا سخيفًا بشعًا .. أسائل نفسى عن النهاية .. عن حصاد لزرع لم يثمر .. وأبى يهز يده .. يلوح لذبابة ..

– كل شيء بيد الله ..

استسلم أبى منذ زمن بعيد .. ألقى سيفه مكسورًا .. أكلته الحياة .. مضغت عظامه ولاكت لحمه .. الجثة هى أيضًا مستسلمة .. كل يوم تندس داخلها أيدينا .. تقطع الشرايين والأعصاب .. تنزع العضلات والأغشية من أماكنها لتبحث عن شيء لا وجود له ..

ارتفع صوتى بالقراءة .. أدركت أننى أزدرد قلق الأسود الذى لا ينتهى .. مددت أصابعى أتحسس الجثة الباردة .. غاصت فى تلافيف الدهن العفن .. زمان .. كنت أهرب إذا رأيت صرصارًا .. وكنت أثور عندما يذكرنى إنسان ما إننى فقير .. والآن .. ماتت فى نفسى الأشياء الحية .. لم تعد تهز قلبى المشاعر البسيطة .. من البيت للقطار .. من القطار للكلية للقطار للبيت .. دوامة لا تنتهى .. حشد طويل من الكلمات والكتب .. والأحلام الكبيرة تتضاءل .. تنزوى .. يخفت بريقها وتوشك على الانطفاء ..

قالت زميلتى ذات النظارة :

– أتعرف .. ياقة قميصك بالية وممزقة ..

أمتدت يدى فى فزع تخفى القطع .. اهتز وجه أبى فى عنف .. صرخت فى جدران بيتنا الأسود ..

– قميص .. أريد قميصًا .

تضاءل صوت أبى .. تناهى إلىَّ من عالم آخر .

– كتاب التشريح كان غالى الثمن .. اشتريناه قريبًا جدًّا ..

عاد عم أحمد يبتسم .. اختلط بكاء أخى بصوت القطار .. أحسست بنفسى أرتعد .. اهتزت قدمى فى عصبية .. عدت للصراخ ..

– أريد قميصًا .. يعنى أريد قميصًا ، قبضت على العضلة فى قوة .. صحت مردّدًا اسمها .. إمتدت أصابعى تبحث عن الأصل والوتر .. مزقت الأغشية فى عصبية .. امتلأت المشرحة بأشباح لا نهاية لها ..

اختلط صوت أبى الخافت مع صوت الدكتور وهو يشرح .. وعم أحمد وهو يلقى تحية المساء .. نظرت إلى سقف المشرحة .. ألقت على الأضواء ظلا باهتًا .. قلت لنفسى .. سأكون يومًا شيئًا ما .. لابد أن أصنع من نفسى دكتورًا عظيمًا .. ضحك وجه برناردشو .. قال :

– الطبيب الفقير .. أخطر الأطباء على المرضى ..

انتزعت أحد الأعصاب فى عنف .. خيل إلىَّ أننى سمعت أهة من الجثة .. ترى من كان هذا الإنسان ؟ أى أحلام دارت فى تلك الرأس المنزوعة المخ .. من ذا يتصور أنه فى يوم ما كانت مأساتى قميصًا .. مجرد قميص .. سمعت وقع خطوات .. رفعت رأسى .. وجدت عم أحمد يقف على باب المشرحة وهو يحدق فىَّ .. التقت عيوننا .. ضحك متكلفًا :

– آهه .. هه .. هه

رددت أنا أيضًا :

– آهه .. هه .. هه

عدت أحدق فى شعر زميلتى .. وأتحدث عن السياسة .. والمستقبل .. الروح الجامعية .. وأحلام الشتاء الغامضة .. لكنها قالت فى إصرار :

– الياقة بالية .. بالية

ولما سرت محنىَّ الرأس رأيتها تضحك مع زميلة أخرى .. أدركت أنها

تضحك علىَّ .. أحاطتنى ضجة الزملاء .. لكنى كنت وحيدًا .. نظرت .. نظرت إلى كل الجثث الممزقة الممدة أمامى .. قلت فى صوت عال :

– ماذا تعرفون عن الفقر .. ماذا تعرفون عن المذاكرة الدائمة فى ضوء المصباح الغازى حتى تظلم عيناك .. تجاوب الرنين مع صوتى فصحت .. توقعت أن ينهض عم أحمد من جوف إحدى الجثث وهو يضحك .. تحسست خمسة القروش البالية مرة أخرى .. قلت لأبى ذات يوم ..

– لماذا يتطلع الفقراء دائمًا إلى أعلى ؟ .

هز أبى رأسه ..

– لأنهم يعيشون دائمًا فى الأسفل ..

ضاق فمى بطعم الطين والغبار .. لن آكل بعد الآن من جثث الذكريات .. أتسمعنى يا أبى .. هناك طريق غامض ينتظرنى بعد تلك السنوات .. علىَّ أن أنسى كل ما خلفى وأسير فيه .. نهض أخواتى من خلف المناضد الرخامية .. امتلأت العيون بالزجاج .. صاحوا :

–كم نفقد من أجلك ؟ .

أدركت أن وجوههم الصغيرة شاحبة ومريضة . وأن هناك آلاف الأشياء المفقودة تقع خارج عالمهم الضيق الخانق رددت فى صوت خفيض :

– لكن القميص .. أريد قميصًا .

لكن صوتى كان أجوف .. يرن فى سرداب الليل بلا صدى .. وصرخ القطار يدعونى إلى عذاب كل يوم .. حيث أضحك .. وأضحك .. أموت من الضحك وأنا أضحك .. يحملون جثتى ويلبسوننى كفنًا وأنا أضحك .. وعندما يغلقون باب القبر علىَّ .. وأعرف أنى وحدى تنسال فى قلبى خيوط الكآبه ..

وأبكى .. وأبكى .. كما لم أبك من قبل .

قال أبى فى استسلام : الصبر .

عاد يردد فى ثقه : الصبر .

أفزعنى يوم الليل فجأرت بالرفض .. رفضت الجدران السود .. وطعم الشاى المالح .. وكل الأشكال الرمادية .. ضحك زملائى .. ألقوا كراريس المحاضرات ..

قالوا فى فرح :

– هناك رحلة للقاهرة : للإسكندرية .. لكل العالم .. تعالوا نلف العالم ..

ولما وجهت إلىّ الدعوة اكتشفت أننى بلا ساقين .. وأن أحلام اليقظة شلت الجزء الأمامى من فخذى .. وفى المساء كتبت إلى زميلتى قصيدة مدحت فيها شعرها الأسود .. وفستانها الأخضر .. ووجهها المستدير كقرش الصاغ .. ولما جاء المساء طالعنى وجهى الشاحب فى المرآة فمزقت القصيدة .. وصفر القطار فحملت كتاب التشريح كأننى أحمل قدرى .

قال صديق فى فزع :

– أنت لا تستطيع أن تناصب العالم كله العداء .

توقفت يدى عن العبث بالجثة .. خطبت فى باقى الجثث .

– أعلم ذلك ولكن لماذا يناصبنى العالم كله العداء ؟ .

استقلت زميلتى فوق أحد المناضد الرخامية .. قال صوتها الباتر :

– هأنذا أمامك .. اكسر نظارتى .. قطّع فستانى الأخضر . [illegible] جسدى بمشرطك . لكن [illegible] لا ينفى أن ياقة القميص بالية .. وممزقة .

تاهت عينى على المناضد الخالية .. قبضت أصابع الصمت على عنق ..

فاجأنى صوت عم أحمد :

– أنت منور .

اغتصبت ضحكه من أغوار سحيقة .

– نورك .

قال صديق .. كان فقيرًا مثلى .. يحب المستقبل .. يحب الابتسام ولا أدرى لماذا ..

– لا تعش داخل نفسك .. أخرج من القوقعة ..

ضحكت بصوت عال .. تذكرت أننى أحب الكثير ، وأكره الأكثر .. وأننى بعد المطر أحدق فى ألوان قوس قزح النقية وأحلم بالمستحيل .. والزميلة عندما كانت تضحك لم تكن تعلم أنها تمزقنى .. وعم أحمد .. يعلق بسمته فوق شفتيه وود حرمانى من الغذاء .. عادت يدى تعبث فى الجثة .. لكننى أدركت عبث ما أصنع .. لن أستطيع أن أركز .. سأظل هكذا تتجاذبنى آلاف الأحاديث والخواطر .. مركب حائر .. لن أجد ميناءً أبدًا .. سأظل أبحث عن فنار يعطى ضوءه بلا ثمن .. أغلقت الكتاب .. غسلت يدى بلا اهتمام .. باقى على ميعاد القطار ساعة كاملة سأتسكع فى الشوارع .. آكل بعينى البيوت القديمة .. أجلس فى المحطة الخالية لتعزف لى أغنية أشد حزنًا وتعطشًا .. ألقيت نظرة أخيرة على الجثث .. حدقت فى عيونها الفارغة ..

سألتهم :

– أى أناس كنتم .. أى أفكار دارت فى تلك الرأس المنزوعة المخ .

دق حذائى وجه الصمت .. لفظنى باب المشرحة وحيدًا .. خرجت للشمس والهواء النقى .. الخالى من (الفورمالين) .. لكن الصوت الذى أعرفه

عاد يرن حولى :

– بدرى .. لم العجلة ؟ .

التفت إليه – كان قد علق الابتسامة فوق شفتيه مرة أخرى .. هززت رأسى .. مددت أصابعى إلى خمسة القروش الوحيدة .. قلت ..

– خذ ياعم أحمد .

ازدادت ابتسامته اتساعًا .. قال فى قوة :

لا يابيه .. مستحيل يا بيه .. غير ممكن يا بيه .

كانت مجرد خمسة قروش بالية قديمة .. مثل ياقة القميص .. مثل الأحلام الشاحبة التى تعبر أفق حياتى .. وتموت .

١٩٦٩

الجزء الأخير من الليل

العالم كريه .. أنا أغوص فى حدائق الليل .. أبحث عن ثمار الأشجار الجوفاء .. غسلت الأمطار المدينة من التراب ولوثتها بالطين ..

أنفث فى وجه الظلام دخان سيجارتى ولا أفكر فى شئ محدد ..

تمنيت أن ألف العالم لكنى وحدى فى الطرقات والليل يوغل فى الزمن ، عقاربى توقفت منذ أجيال بعيدة ، فى نهاية الشارع أبصرت الشرطى يتنقل ما بين الأرصفة فى قلق . ضحكت تذكرت السمكة التى تشفى كل الأمراض ولا تكف عن التكاثر ..

كان طعم القبلات مرًّا .. تلامس اللحمان أكثر من مرة . تشنجت عضلات الوجه والشفاه ، فى محاولة يائسة للبحث عن لذة . اكتشفنا أنه لاشىء ، وأن حبيبتى فقدت عذريتها منذ زمن لا أتذكره . اعتدى عليها إنسان ما فى مكان ما على قارعة الطريق .

أنا .. أتمنى لو أن العالم كله نافذة زجاجية واحدة أقذفها بحجر واحد وأجرى .. إلى أن أغرق فى المحيط أبحث عن جنيات البحر العذراوات وعن آلهة الأقيانوس القدامى ..

فى المساء انتحر أحد أصدقائى .. كتب وصية يشتم فيها العالم ثم صعد فوق

كوبرى حديدى صدئ وألق بنفسه فى الماء .. قالوا إنه ندم فى منتصف طريق السقوط وفكر فى العودة . لكن الهواء اندفع باردًا وانزاح الماء فاغرًا عن هوة مظلمة . صرخت فى الليل إننى لم أعد أؤمن بشىء وإننى أريد أن أحاكم محاكمة عادلة قبل أن أموت ، لكن القضاة أفهمونى إنه لا معنى للعدل . وإن المصطلحات القديمة يجرى الآن تبديلها بسرعة كبيرة .. كنت أحب صديق . اكتشفت ذلك عندما جاء المساء علينا ولم أجده بيننا . تبادلنا النكات المألوفة حول الشواذ .

– مرة واحدة كذا .. شاف واحد كذا ..

رأيت وجه حبيبتى يتلوى من ألم غامض ، تسللت البرودة إلى عظامى فنهضت . عرض علىّ أحد الأصدقاء أن يسير معى لكننى رفضت . عدت أتأمل الشرطى . يروح ويغدو بين الرصيفين .. هل من الممكن أن تقتنصه سيارة فى المنتصف ؟ .

سألت حبيبتى عن عدد الذين جردوها من ثيابها . قالت بلا مبالاة : كثيرون . ولما أصررت أعادت القول : كثيرون . صرخت وأنا أضغط على عنقها كم ؟ قالت لمجرد ألا يضيع الوقت حاولى خمسين . صمتت قليلا . أو مائة . قابلت بدقة أكثر ما بين الخمسين والمائة .. وكان جسدها متعًا ومنهكًا . وأقسمت أنها بمقاييس العصر وبعيدًا عن التحديد الأكاديمى لم تزل عذراء ..

فى المقهى مر علينا أحد المتسولين . قال إنه من المهاجرين ، فضج الجميع بالضحك .. لو أننى فوق ذلك الكوبرى الحديدى أتطلع إلى السماء والنجوم . أراقب لمعان الأقمار المندثرة .. ثم أقفز بلا مقدمات . أتهاوى فى جوف الفراغ والسكون . أستعرض حياتى كلها فى كلمة واحدة ..

– لا شىء .

لكننى اكتشفت أن صديق لابد فعل ذلك ، وأنه خير لى أن أموت فى بطء .

إقتربت من الشرطى . سمع خطواتى لكنه ظل يروح ويغدو بين الرصيفين خطواته متسقة كأنما يقيس اتساع الشارع . خيل لى أننى أعرفه قبل الآن ، وانساب الشارع من حولنا خاليًا باهتًا .

رأيت كثيرًا من الحواة ينامون على المسامير يأكلون الزجاج . يطفئون النار فى أفواههم . لكنى كنت موقنًا أنهم موتى . كلهم موتى . وحلمت ذات يوم أننى قتلت رجلا قصيرًا أسمر اللون . بدا لى بطريقة لا تقبل الشك مصابًا بربو مزمن . ولما قتلته صرخ الجميع بوجهى

– هو أبونا خوفو العجوز . هو أبونا المقدس ..

ضحكت حاولت إفهامهم أنه مجرد إنسان عجوز . سيموت بالربو فى أقرب وقت على أية حال ، لكن الوجوه التفت حولى . رأيت حبيبتى تخلع ثيابها وتحرضهم على قتلى ، لكننى وبعد أن استيقظت أكدت لى أن هذا لم يحدث . واكتشفت أن لخوفو نفس وجه صديق الذى انتحر .. وبدا لى النيل غاية فى الغموض ..

اقتربت من الشرطى أكثر . قلت :

– مساء الخير يا شاويش ..

رد التحية دون أن يلتفت . ضايقنى أنه لا يحس بى ، لابد أنه يحسب أننى خائف منه .. العالم كله فوق صدرى ، ماذا لو اختفت كل هذه المبانى بطريقة سحرية . يتحول إلى ساحة واسعة لا نهائية تمتد من الأفق إلى الأفق . لحظتها

سأصرخ بأعلى صوتى . أردد كل ما عرفت من أبيات الشعر والخطب الحماسية . أدندن كل فلسات شتراوس . املأ كل الساحات بالموسيقى ثم أجرى إلى الأبد .

لم يزل يسير يقطع الطريق فى نفس الخطوات . كأننى لم ألق عليه التحية . وكأنى لا أستطيع الجرى حالا . قبل أن أترك لنفسى فرصة التفكير تحركت قدماى . وجدتنى أجرى .. نعم أجرى . فى الأحلام كنت دائمًا أرى ساقى مقطوعتين . لكننى الآن جريت . خدشت أقدامى جلد الليل . امتد الشارع أمامى مخترقًا بطن الأفق .

.. من الخلف سمعت الصوت مذهولا .

– ما هذا .. قف .. لا تجر ..

يأمرنى أم يرجونى ، شعرت بالسعادة ، فتحت صدرى للهواء النقى وأسرعت . يدق حذاء الشرطى الأسفلت محاولا اللحاق بى . تناثرت حولنا بقايا الأمطار القديمة .

– توقف .. أنا لا أحب الجرى .

وصديقى لم يستطع التوقف كان فى منتصف المسافة تمامًا . وموجات الماء تنزاح فى اتساع والهواء البارد يصاعد ويخترق جسده حتى النخاع . والسماء خلف ظهره . لأول مرة منذ أن ولد والسماء خلف ظهره . وحبيبتى تخلع ثيابها لكل عابر طريق .

–كم أنا متعب ! .. صحتى لا تحتمل أرجوك ..

لعلها ذات يوم خانتنى مع هذا الشرطى .. خانتنى مع أحمس قبل أن يذهب لطرد الهكسوس . من يومها وأنا مشلول . كان يجب أن أجرى . أهرب . من الأمطار . من آلاف التماثيل الرخامية .. من خلف العقارب المعطلة .

والضحك على نكت الشواذ .

– لن أحتمل .. لن أحتمل .

صوت العسكرى ضعيف واهى .. عبرنا أكثر من نصف الشارع ولم يزل الأفق بعيدًا كأنه أمنية مستحيلة . اخترق السكون صوت الصفارات – صفارات غريبة أشبه بالنواح . التفت إلى الوراء . وجدته واقفًا والصوت النائح يتعالى . يخترق الحارات فزعت لأننى لم أكن أحب الصراخ . وعندما عاود الشرطى الركض . ركضت من جديد . ازدادت الصفارات .. انسابت إلينا من شقوق المنازل والحارات الثعبانية . تحولت الخطوات إلى ألف خطوة . هتكت سكون الليل دقات آلاف كعوب الأحذية .

نظرت خلفى تحول العسكرى الوحيد إلى عشرات العساكر . يلبسون زيًّا واحدًا ويجرون فى إيقاع منتظم . حاصرنى لحن رهيب . مؤلف من الصفارات وتداخل كعوب الأحذية . صرخت فى وجهها :

– لماذا وضع الجميع بصماتهم عليك ؟ .

تأوهت فى صمت ودفنت رأسها فى الوسادة . لم أترك الفراش كنت غير قادر على الهبوط والجرى ، ظلت سيقاننا متلاصقة . وصديقى كان يدور فى دوامة رهيبة . فى أحدى الأمسيات نهض من فوق المقهى وأخذ يدور فى الساحة الواسعة . وهو يتمتم بلحن غامض لم أسمعه من قبل ، ولما لفحنى هواء النيل المشبع بالموت كان لحفيف الريح نفس اللحن .

يتكاثرون كأنما ينسابون من الشقوق ويهبطون من السماء ، والخطوات تصك الأسفلت فى عنف . يالها من رغبة جنونية أن أبحث عن شىء لا وجود له . لماذا لم أصرخ فى وجه العالم . أنت كريه ، هذا الشارع بلا نهاية . والبحار

المظلمة بلا قاع . والأفق المتراجع بلا قلب . السماء منذ يومين لم تكف عن الأمطار . والمدينة لم تزل متسخة . لا الأحلام القديمة تتحقق ولا الخطوات التى تطاردنى تكل . صدرى يضيق . نفسى يتقطع .. يتدافع العساكر .

– قف .. قف يا ابن الكلب .

حاولت الضحك شعرت بالتعب . الظلام يتكاثف . الخطوات تقترب .

– قف يا ابن الكلب .. لن تستطيع الهرب .

.. . وعندما سقطت أحاطوا بى رأيت وجوههم تحوطها غلالة وحشية . لا أستطيع الكلام معهم . أخرج ما فى جيبى من سجائر . وأعترف أننى أخطأت عندما بصقت فى وجه العالم . لكن عشرات الأيدى امتدت نحوى . صرخت بأعلى صوتى :

– لا .. إنى أرفض .

لكنها هوت فوق وجهى وصدرى . فوق أعضائى الزجاجية المحطمة إنهالت على « أكوام الألم دون أن أعرف المصدر المحدد للضربات ، كنت أتقلب يمينًا ويسارًا ولا أحد يحمينى . لا جدران . لا أغطية لا أقنعة . والركلات فى جنبى دمدمات حيوانية ، جسدى كله يدمى . كيف أقول لهم إن آلاف الشهداء يموتون كل يوم بلا قضية . يضحكون اختلط الضرب بالدمدمات الحيوانية . الضرب لن ينتهى . أنا أيضا لن أنتهى . سأظل هكذا أتقلب ، أضرب ، أنزف كل دمائى ، وأمارس الرفض .

١٩٦٩

سعفان مات

الساعة الخامسة صيفًا .. حيث يبدو النهار شاحبًا وميتًا ..

تعثر طفل صغير فى حجر صغير .. نظر إلى السماء وبكى . حدقت سيدة محترمة فى جسد أحد الرجال السمر .. شعرت بأشياء غير محترمة بداخلها لكنها واصلت السير بهدوء . الساعة الخامسة يا أبى . الخامسة صيفًا .

بدا أن الأرض ستتم دورة من أحد دوراتها فى هدوء كما فعلت ملايين المرات . صعد طيار أمريكى شاب إلى سماء قرية حقيرة فى فيتنام وهو يدندن بأحدث أغانى « بول ديلان » .. عزف الراديو إحدى سيمفونيات « برامز » حيث يختلط الحب بالرغبة فى البكاء لكنها كانت سخيفة ..

الساعة الخامسة بلا دقائق . بلا ثوان . الخامسة يا أبى صيفًا .

من جوف السماء انبعثت صرخة حادة . ملأت كل فراغ الأرضية . صرخ صوت مشروخ يحمل كل جفاف الجنوب .

– حاسب يا ريس .

من خلف أكوام المونة وأطلال أحجار البناء وتلال الرمل النق تعالت عشرات الأصوات فى إيقاع واحد غريب .

– حاسب يا بوى .. حاسب يا بوى .

ويبدو الأمر غريبًا يا أبى عندما يتعلق بالموت . نتذكر نحن المصريين البؤساء وجوه آلاف الأجداد الذين ذهبوا خلف الأفق . تكتسى كل المعانى طابعًا واحدًا . وعبثًا نحاول يا أبى فكل أنهارنا تصب فى محيط واحد متخم .

قال الصعيدى الوحيد الذى شاهد الحادث وهو واقف أمام الضابط .

– أيوه يا بيه .. كنت واجف يا بيه .. فوج السجالة يا بيه .

قال بقية الرجال يؤيدون زميلهم :

– إحنا غلابة يا بيه .. وأنت فرعون يا بيه .. وأنت آمون يا بيه .

وكنا فى آلاف النجوع يا أبى نموت فى دورة الفيضان والجفاف . تفتح علينا قبورنا بلا استئذان .. ويلقى علينا سعف النخل ظلالا تجعلنا نحلم بما خلف الأفق .. وعندما يحملنا مركب قديم . يجتاز حضن أبونا النيل إلى الشمال حيث العمائر والموانى الرطيبة . حيث نجد العيش الجاف . ونشم هواء الزيت المحترق . كنا يا أبى لا نعرف أن اسم النيل « حابى » وأن أمنا اسمها « ايزيس » .. وكنا يا أبى مصريين بؤساء .

أشار الدكتور للمريض حتى يعيد الغطاء إلى وضعه الأول . أطلت القدم المتسخة المشققة فشعر بالاشمئزاز قال :

– كسر .

هتف الجميع آيه .

قال فى انتصار وهو يرسم فى الهواء إشارة مجهولة :

– كسر .. كسر فى العمود الفقرى .

وفى الفضاء كان ثمة شخص بلا توازن . رأسه إلى أسفل وقدماه ترسمان الرقم سبعة فى وجه السماء . ويقولون إن الشخص فى هذه الحالة يفقد بصره

قبل أن يفقد وعيه . ويظل يصرخ بلا جدوى إلى أن يصل إلى حضن الأرض .

وفى الأسفل كانت هناك عدة غرابيل قديمة لفصل الرمل والزلط . وخلاط ضخم للمونة ، وعدة أكوام من الطوب الأحمر القانى . وعروق طويلة من الخشب عليها لون أبيض مالح . وبغض النظر عن حفر الماء المتناثر كان هناك كثير من الفتيات يحملن قصعات المونة وواحدة منهن تغنى أغنية غير مفهومة لا يسمع منها إلا كلمة :

– يا ولداه .. (وتقول كثيرًا من الكلمات الملتوية ثم تواصل ..) « يا ولداه » وهكذا يا أبى لم يكن شىء معد للسقوط . فكيف صرخنا وسمع الجميع صوت الصمت بيننا آلاف العمائر وبتنا فى العراء . شيدنا أضخم الأهرام ، ودفنا فى حفر قذرة تحت الأرض . ولماذا يغمرنا الجفاف حتى الموت . وعندما تحملنا المراكب الشمالية لا يصيبنا إلا الذبول . نبعث للأهل رسائل ركيكة نحلم فى سطورها العرجاء بيوم العودة والراحة . وأبدًا أبدًا لا يأتى هذا اليوم . نموت فوق السقالات . وتحت حمالات الشحن فى الموانئ .. وخلف أكياس القطن فى المحالج نعرف طريق الحانات الرخيصة وجلسات « الغرز » ، ويفتح لنا الليل أبوابه الخلفية ، نشم كل الروائح ولا نستطيع الفكاك من رائحة العفونة .

فى المساء ضحك الدكتور وهو جالس بين أصدقائه . كان يتأمل أيدى اللاعبين وهى تنقل قطع الشطرنج وأحدهم يهتف :

– تتش موف .

ضحك الدكتور وقال : كسر فى العمود الفقرى ..

لم يجبه أحد ، ظل شعور الملل الصباحى يلازمه . حدق فى أضواء النادى .

تذكر أنه قد مرت آلاف الأعوام منذ الساعة الخامسة صيفًا وأنه يجب أن يكون سعيدًا . حاول أن يتخيل الوجه الأسمر النحيل . كان مختلطًا بآثار الدم والأسمنت .. قال فى سرعة :

– (فراكشر إن ذا فرتبرال كولوم) .

أومأ لنفسه فى ثقة ، عاد يحدق فى اللعب .. صرخ الضابط :

– الاسم .

قال نفس الصعيدى بنفس الصوت :

– سعفان ولد سعفان .. من نجع السعافنة يابوى .

قال الجميع :

– نجع كله شديد يا بوى .. اشتركوا فى بنى الهرم .. ناس منهم سافروا المكسيك .. وجماعة اشتركوا فى حرب بلاد الموره يا بيه .. ربنا يخليك احنا معملناش حاجة .

لوح الضابط فى وجوههم بملل .

– كان بيشتغل إيه بالضبط .

– كان صعيدى يا بيه . اشترى الترمواى .. وبنى البرج والسد . وكان زميل سبارتكوس فى محاجر الكبريت .

سعفان ولد سعفان . من نجع السعافنة . الجنسية مصرى . فصيلة الدم مجهولة . فى جسده بقايا الأمراض المتوطنة القديمة . وفى عينيه حزن يمتد عمقه خمسة آلاف سنة إلى الوراء . من نجع السعافنة يا أبى . بعد أن تترك خلف ظهرك صفوف الحقول الخضراء حول النيل وتقرأ الفاتحة لسيدى عبد الرحيم . تخوض قدمك فى الرمل الناعم ، وتصبح الصحراء والشمس كتلة واحدة ملتهبة ..

وتجد نفسك نقطة صغيرة تافهة على وجه مصر الأصفر العريض ثم يبدو الجبل على يساره قدر لا مفر منه . قد تجد هذا النجع يا أبى . قد تقابلك فتاة صغيرة لا تعرف من العالم أبعد من حد النيل ، عيناها سمراوان داكنتان ، تمسك ذيل معطفك وتكشف عن صف ناصع من الأسنان وتقول :

– أبوى ما عاد يبعت جوابات واصل . عتجولش نسى ، ما فى أخبار من حداه .

ويبدو أننا فى هذا العالم غرباء إلى حد ما . فلكل تاريخه الطويل ، ونحن تاريخنا فى الموت ، وعندما نقف فى مواجهة رياح العالم نكون عرايا . تختفى من داخلنا ذكريات الطفولة ولا نجد على ألسنتنا إلا طعمًا مرًّا علقمًا . ويبدو يا أبى أن الأحلام فى أيام الجفاف لا تلد إلا السراب .

أواه .. ما أطولها تلك الساعة الخامسة صيفا ! !

جروا إليه من كل مكان .شاهـدوه وحوله بقعة واسعة من الدماء ، ألقت الفتاة القصعة وتوقفت نهائيًّا عن الغناء . وظل الصدى يردد كلماتها الغامضة :

– يا ولداه .. يا .. ولـ .. داه .

بانت فى وجوههم ملامح غريبة تساءلوا : لماذا مات هكذا ؟ . لماذا عاش هكذا ؟ .. ومن فوق السقالات صرخ أحدهم كحيوان جريح :

– يا .. بو..ى .

ورد الجميع عليه :

– آه لو جعدنا مطرحنا .. لو ما بحرنا واصل ..

تخيل يا أبى لو أنهم لبثوا فى الجنوب وتركوا الشمال للشمال . يبنيه أو يعيش على أنقاضه .. ماذا لوا أنهم منذ آلاف السنين لم يظهر فرعون يمسك الكرباج .

يسوطهم ويزرع داخلهم جرثومة البناء . لا تبنوا . ما الفائدة .. ؟ أنتم تبنون منذ آلاف السنين . أثواب الشمال تتغير . ألسنة الشمال تتغير . وأنتم تحملون الأحجار . تضعون الحجر على الحجر . يأتى الغزاة من سهوب الأرض الباردة . وأنتم تضعون الحجر على الحجر . تتغيير آلاف الأقنعة الحضارية وأنتم تضعون الحجر على الحجر .. الحجر على الحجر .. الحجر على الحجر .

ألقى الممرض عليه غطاء أبيض .. وفرقع الدكتور بأصبعيه فى الهواء .

– كسر فى العمود الفقرى .

فردد الجميع .. كسر فى العمود الفقرى .

لكنى أفض إليك بالسر يا أبى : سعفان لم يمت من الكسر . سعفان كان ميتًا منذ زمن بعيد . زرعت فيه أيام الجفاف حقولا قاحلة . وخلّف الحلم بلا أمل بقايا من الرماد مُلئت داخله حتى مات . سعفان كان ميتًا حتى من قبل حفر القنال بزمن بعيد . لكن الذى حدث أن الضابط أقفل الدوسيه وقال بالحرف الواحد : يحفظ .

١٩٦٩

الأشياء

البداية :

....

.. ودائمًا .. لابد من البداية .. رغم تفاهة الأشياء .. لابد من النبش تحت التراب .. بحثًا عن حروف الهجاء .. وبلا بداية .. كان القطار يسير .. قطار طويل نحيل كأنما لفظه رحم الكون لتوه .. فمضى منتعشًا بنغمة الحياة .. ينفث دخانًا أسود .. يعلو ذؤابات الشجر ، ويرسم فى الهواء خطوطًا ملتوية لكلمات غامضة .. والجو يميل إلى الغروب .. غروب شتوى قاتم ..

العالم من النافذة ..

.. .. ..

الأشياء تنزاح إلى الوراء فى عنف .. الأرض الزراعية الواسعة .. تدور فى نصف دائرة شاسعة مركزها القطار .. النباتات الصغيرة بجانب القضبان ترتعش .. هواء مشبع برائحة الزرع والتراب .. يهجم خلال النافذة .. صف طويل ممتد من أشجار السرو العالية .. خلفه صف يبدو أقصر قليلا يسير فى اتجاه مخالف .. قممها تسمق للسماء فى صلابة ..

على اليمين .. ترعة صغيرة .. مياهها الفضية مثقلة بالطين والقاذورات ..

شريان غريب انفصل عن أمه النيل .. فى رحلة طويلة .. قطع خلالها آلاف الترع والرياحات .. لكى يموت وحيدًا وسط الأراضى الواسعة القفرة .. أعمدة التليفونات تتتابع فى إصرار رتيب .. تأتى من الأمام فى محاولة مستميتة للثبات .. لكنها تتراخى فى عنف وتختفى .. الأسلاك لا نهائية تشتد بجانب الأعمدة وتنبعج فى الوسط .. تسترخى استرخاءً ميتًا .. تنفر من فوقها العصافير قبل أن يلوثها الدخان .. حقول الأرز شاحبة .. يلقى عليها الغروب ظلا مخضبًا .. بين آخر وآخر يظهر فى حدود الإطار .. بشر ما .. فلاح ضئيل يغرس يديه .. يخفيها تحت طبقات المياه السميكة فوق الأرز .. يتطلع إلى القطار فى استغراب .. يفتح فمه ولا يرفع يده .. وامرأة جالسة .. تغسل بعض الأوعية – خليط من النحاس والفخار – على حافة الترعة .. تكشف الجزء الأمامى من فخذيها .. عندما يعبرها القطار .. تضع يدها فوق أوعيتها فى خوف .. تحملق فيه ملتاعة حتى يختفى

الأرضية ..

.. .. ..

مستطيل صغير بين المقعدين .. مغطى بطبقة من الفبر اللين .. أطرافه منتفخة على أثر نشر به ماء متسلل من مصدر مجهول .. وبغض النظر عن أعقاب السجائر المتناثرة والتى كانت تكون (موتيفًا) ثابتًا .. هناك قطع بالموسى .. يكشف عن جزء كبير من الأرضية المتسخة .. وفوق تلك الأشياء تناثرت دوائر كبيرة من البصاق .. بقع صغيرة تأخذ أحيانًا لون الأرضية .. وأحيانًا تنفرد بلون أبيض جيلى .. تتجمع بعض الدوائر فوق بعضها .. تكون عدسة مائية .. مرخاة

الأطراف .. وبالقرب من الباب ورقة مفضضة .. لعلها بقية (أسبرينة) .. أو دواء من نوع آخر ..

القضبان .

رغيف خبز طويل لا ينتهى .. والقطار جائع شره لا يشبع .. فى المقدمة تأتى من خلف الأفق .. تشع بريق النضج والرغبة التواقة فى اللقاء .. تتلوى فى حركة ثعبانية .. تفقد كل ملامحها .. لا يظهر منها إلا خطان لا معان .. يحملان نداء الرغبة الحار .. القطار يطويها يأخذها فى صدره العريض .. يهرسها تحت عجلاته فى شبق .. ينزعرقه زيتًا أسود يلطخ الفلنكات .. ثم يصرخ .. صرخة حيوانية مثل صهيل حصان جامح .. عشرات القرى تمر .. إيقاع ثابت لا يتغير .. وكلما أوغل القطار فى الرغبة والشراسة ظهرت من خلف الأفق خطوط ثعبانية جديدة .

فى المقدمة نفس العناق المحموم فى المؤخرة ترتمى خلفه مجهدة .. ملامح متميزة .. قضيبان متوازيان يعلو جوانبهما الصدأ .. فلنكات خشبية ملوثة بالزيت الأسود وبقايا نفايات آدمية أخرى .. حفنات من الحصى والزلط .. والأرض قفر واسعة .. تمتد امتدادًا خرافيًّا حيث لا أفق .. ولا شىء حى .. لا شىء يتحرك .. يتنفس .. يعطى أى نوع من التناسق .. سوى هذه الرغبة العارمة .. والعناق الأبدى .

الكمسارى ..

يرجة القطار مثل زجاجة منتفخة يراد خلط سوائلها .. تحولت اهتزازته المتكررة إلى نوع من الجمود .. كرشه المنبعج قليلا .. يرتفع وينخفض فى حركة توافقية بسيطة .. سترته الخضراء القاتمة منتفخة الأطراف .. الجيب الأيمن أكثر

انتفاخًا من المعتاد .. محشور فيه دفتر المخالفات القصير السميك .. إشارة المصلحة فوق كل زر من أزرار سترته النحاسية .. ولعلها أيضًا فى أماكن أخرى خفية من جسده .. وجهه مرخى القسمات .. بياض عينيه مشقق بخيوط حمراء متعرجة .. شاربه مهدل .. يطرق الخشب والزجاج بآلته الحديدية بلا كلل يردد للفراغ « تذاكر » .. يتطلع إلى الطرقة الخالية التى يسير فيها وحده .. ويعيد « تذاكر » .. صوته بلا حدة .. كأن حباله الصوتية مجوفة ..

على اليسار – فى الطرقة الطويلة الخالية – صف من الدواوين .. فى أولها ديوان بابه الزجاجى مطلى باللون الأبيض .. مكتوب عليه : للسيدات .. الجانب الأيمن تخرقه نوافذ بلا حصر .. يلقى عليها الغروب لونه الشجى الحزين .. فى حين تظللها المصابيح المنتشرة فى السقف .. مصابيح مطلية أيضًا باللون الأزرق .. غير معروف تاريخ الطلاء ..

عند كل ديوان تمتد يده لتزيح الباب .. يئن الباب فى ضعف .. يتراجع منكسرا .. يكشف عن فجوة مستطيلة من الديوان .. يحشر فيها رأسه .. يندفع إليه تيار الهواء الممضوغ بالكلمات .. يتطلع إلى الموجودين بالداخل ولا يراهم .. يحرك عضلات فكيه .. تنبعث من خلالها كلمة تذاكر .. يحرك رأسه حركة أفقيه يعبر فيها أيديهم الممتدة والمتداخلة .. تكون الاشتراكات الحمراء والتذاكر الخضراء سحابة قرمزية خفيفة .. تتشكل سهمًا بلا قمة . يدخل عينيه .. يرسل داخله شعورًا مريحًا .. إنه قد فعل كل ما يمكن فعله .. يومئ برأسه عدة إيماءات .. يغلق الباب .. يسير مترنحًا إلى الديوان المجاور .. تكون يده لا تزال قابضة على آلته الحديدية .. وفكاه يتحركان مع كرشه نفس الحركة التوافقية البسيطة .

ثم .. لا شىء .. المنظر عادى ومكرَّر بطريقة مروعة .. آلاف الفتات تتجمع .. تتكاثف فى شىء واحد صخرة أو شىء من هذا القبيل .. تتجمع فوق الصدر المضنى ..

جدار الديوان القابل ..

......

يرتفع من خلف المقعد الجلدى الأخضر .. يكون سقفًا عجوزًا مقوسًا .. ينحنى محتويًا فى حدته مصباحًا مدهونًا باللون الأزرق .. فى أطرف السقف نقوش عتيقة .. المفروض أنها وضعت للزينة .. أو لكسر حدة رتابة الانحناء .. فى الوسط مغروس رف من القضبان الحديدية .. تبطنها شبكة ممزقة .. لونها كالح ترك الذباب آثاره فوق أطرافها المدلاة .. تحت الرف إطار مستطيل .. مصنوع من نفس مادة الجدار الخشبية مطلى بلون بنى غامق .. تقسمه عوارض خشبية بنية اللون إلى ثلاثة إطارات .. فى الوسط مرآة صغيرة باهتة تسلل السواد إليها من الأطراف .. كون فوق سطحها العاكس أشكالا غامضة .. فى الإطار الأيمن صورة قديمة .. معبد أثرى .. تختلط الظلال الكثيفة بقايا الأعمدة الحجرية المتكسرة .. رجل ذو جلباب أبيض يقف أسفل عمود .. ضآلة الرجل توضح مدى ضخامة العمود .. تحت أقدام الرجل تمتد أرضية جافة خلفها سماء بلا طعم .. قطع سحابية حزينة .. خلفها أرضية شاهقة البعد وبلا لون .. الإطار الأيسر يحتوى على إعلان أصفر اللون مكتوب بالإنجليزية هل رأيت الآثار العجيبة لحضارة المصريين القدماء .. وبعد أن يرسم علامة استفهام ضخمة .. يضيف .. « إذا لم تكن .. فأنت لم تر مصر .. » .. ثم صف من

أسماء البلدان والمعابد .. فى الوسط بقعة جافة .. لعلها أثر بصقة قديمة غير معروف كيف نفذت خلف هذا الزجاج ..

على طرف المقعد

المشمع الأخضر السميك مشدود بدقة متوترة فوق الهيكل الخشبى .. مغروس عند تقابل الأرجل مسامير صدئة .. رءوسها مستديرة .. تترك فيما بينها مثلثات من المشمع غير منتظمة الأضلاع .. فوق الطرف بالضبط جريدة ملقاة بإهمال .. جزء صغير منها فى الهواء يتزايد على إثر اهتزازات القطار .. مطوية **ثلاث طيات غير متساوية .. عند منتصف حافة الطية .. آثار عرق الأيدى الكثيرة التى تداولتها .. عنوان الجريدة مخفى فى أعماق الطية الثانية .. تعبر الطية الظاهرة مجموعة متتابعة من العناوين .. تتناقص فى الحجم كلما هبطنا إلى أسفل .. فى الأعلى .. يعبر الطية العنوان الأحمر الضخم غير مخلف إلا كلمة « الضفة .. » .. تحتها عنوان كلماته .. سوداء صغيرة نسبيًّا .. « تهاجم وتقتل .. » تحتها عنوان أكثر دقة وأكثر كلمات .. « إطلاق النار على المتظاهرين أمام .. » .. فى الطرف جزء فحمى اللون من صورة غير واضحة .. مكتوب بجانبها خبر صغير .. تهرأ الورق عندها فلم يعد من المستطاع قراءته ..**

بجانب الجريدة (راديو) صغير .. فى حجم الكف له نفس اللون الأخضر .. وإن كان يختلف عن لون المقعد .. الراديو صامت .. يبدو أنه ظل يتكلم حتى أفرغ كل ما فى أحشائه وتوقف نهائيًّا .. كان صامتًا .. صمت الموت الثقيل ..

الطرف الآخر من المقعد

طرق الكمسارى الباب .. لبث برهة ثم أزاحه .. كشف عن الفجوة

المستطيلة .. حشر رأسه فيها صرخ تذاكر .. لم يجاوبه أحد .. ضم حاجبية فى استغراب .. نظر إلى داخل الديوان .. رأى طرف المقعد .. والجريدة المطوية .. والراديو الصامت .. رفع رأسه .. نظر إلى الوراء .. اجتاز القطار محطة صغيرة قبل أن يقف .. تكاثف الغروب .. هبطت ذرات الليل سناجًا .. عاد يتطلع إلى داخل الديوان .. ألقى المصباح الأزرق ضوءًا باهتًا على الطرف الآخر من المقعد .. كان الرجل العجوز راقدًا .. وحيدًا فى الديوان الضخم البارد .. منزويًا فوق مساحة خضراء صغيرة .. رأسه مائلة على جانب .. ملتصقة بالزجاج والمصراع الخشبى .. ذراعه الأيسر موضوع فوق الفخذ الأيسر .. ذراعه اليمنى مدلاة دون مستوى المقعد .. كانت حلته من الصوف الإنجليزى القديم .. لونها قاتم .. غير معروف إن كان أسود أم رماديًّا .. تسير فيه خطوط رفيعة متوازية بياضها حائل .. وفى قدميه حذاء ضخم .. أسود لامع .. قمته منبعجة إلى أعلى مقوسة معها مقدمة النعل .. البنطلون يرتفع قليلا ليكشف عن الجورب المطوى .. ملامحه مهدلة وشاهقة الصفرة .. العين الزجاجية مفتوحة لأقصى اتساعها كأنما تريد أن تأخذ معها أكبر نظرة ممكنة .. الفم أيضًا مفتوح فى استغراب مفاجئ ..

تشنجت ملامح الكمسارى .. قال تذاكر بصوت خافت ضعيف .. قبل أن يدركَ ما حدث تمامًا .. عرف أن الراكب العجوز ليس من ركاب الدرجة الثانية .. بطيئًا .. رأى البصاق .. والورقة المفضضة .. تطلع أيضًا إلى الترعة الغامقة خارج النافذة .. حاول أن يقول شيئًا غير كلمة « تذاكر » .. يتشهد مثلا .. يعلن أسفه بأى حركة مسموعة .. لكن اخضرار المقعد .. كان يملأ عينيه .. يسد كل منافذ الرؤية .. حتى اهتزازات القطار تحولت إلى نوع من

الصمت الجليدى القاتل .. رفع رأسه .. أزاح الباب إلى مكانه استند بظهره إلى الديوان .. نفذت خلاله برودة الزجاج .. أحس أنفاسه ثقيلة .. تراخى على النافذة .. تدلت يده خارجة منها .. اهتزت من الهواء مثل بندول ساعة خربة .. غرقت عيناه فى محيط الظلمة ..

١٩٧٠

الفراغ
ثلاث حركات بطيئة

الحركة الأولى :

مربع أبيض .. مربع أسود ..
مربع أبيض .. مربع أسود ..

تتابع رتيب وسط الفراغ البارد .. نغمة صامتة مكررة .. تحت مستطيل الضوء الواهن تنام الرقعة الصغيرة ومساحة محدودة من الأرضية المحيطة ..

الأرضية الغارقة فى الظلمة واسعة .. تقسمها البلاطات الملونة إلى نفس التتابع الرتيب .. تشكيلات متساوية من المربعات والمستطيلات اللانهائية .. حولها تنتصب الجدران العالية .. ملساء .. خالية من أى نوع من أنواع الزينة أو النقوش .. لونها غير محدد .. وإن كان يغلب عليها الطابع الرمادى ..

وبرغم التيارات الهوائية الباردة التى لا تنى تعبر الغرفة فإن مستطيل الضوء كان مايزال يكشف عن الرقعة الصغيرة والبيدق الضئيل وحيد تمامًا ..

كان يقف فى المربع الأسود .. فى الصف الثالث الأفقى عند تقاطعه مع الصف الرابع الرأسى .. يمتد ظله النحيل مكونًا مساحة سهمية ترتمى فوق المربع الأسود فى الصف الثانى الأفقى عند تقاطعه مع الصف الخامس الرأسى .. ويحتل

أيضًا مساحة صغيرة من طرف المربع الأسود فى الصف الأول الأفقى عند تقاطعه مع الصف السادس الرأسى ..

دونما حركة يقف البيدق فى نفس المربع رأسه كبيرة بالنسبة لجسده الصغير .. تلمع بخفوت .. تنتهى فجأة إلى عمق رفيع .. يتلوه عدة دوائر خشبية متوازية .. تكبر كلما هبط الجسد إلى أسفل .. تنتهى تمامًا لأن طول العمر وملامسه الأصابع وحبات العرق المتوترة اكسبته لونًا مجهدًا .. خليطًا من الإصفرار والتراب كان وحيدًا تمامًا .. والمربعات تمتد نفس الامتداد الخرافى ..

مربع أبيض .. مربع أسود ..

مربع أبيض .. مربع أسود ..

فى البداية البعيدة شعر بالسعادة .. بعثت فيه الريح الباردة والضوء الواهن والوحدة الشاملة شعورًا مبهمًا بالانتصار .. أمر مثير أن يسود الفراغ فجأة .. القامات العملاقة .. شراك الموت خلف كل مربع .. الظهر العارى والصراخ بلا جدوى .. الموت المفاجئ بلا ثمن .. كل ذلك اختفى .

كان الوزير يملك قدرة الحركة الخارقة .. كان الحصان يصهل ويقفز حتى الهدف المجهول .. كان الملك يقف فى الصف الأخير .. يدفع الجميع ويظل يبتسم نفس الابتسامة الغامضة .. كان .. كان ..

كان ضئيلا فى عالم شاسع .. حروب طاحنة هو ضحيتها الأساسية .. يلوحون له بالهجوم بالوعود . بالترقية .تقتلـــه لابتسامات العملاقة .. والخطط الطائشة .. والعجز عن المناوره والتراجع .. وشعور الأمان يتمدد .. يشمل الرقعة كلها .. يتمدد ظل الأحلام التى طال مواتها .. يصبح الخلاء مملكته ويصبح هو الملك ..

كان عليه أن يتحرك ..

نظر حوله .. فكر أنه لو سار للمربع الأخير فسيصبح وزيرًا .. لم يهتم بالأمر كثيرًا .. فهو الآن ملك .. الأمر المهم حقا هو الحركة .. إثبات القدرة على التواجد .. ببطء شديد أحاطته المشكلة .. تراكمت مع التيارات الباردة .. لم يكن يعرف تمامًا .. فى أى الإتجاهات يسير .. ؟ .. صحيح أنه فى المربع الأسود فى الصف الثالث الأفقى عند تقاطعه مع الخط الرابع الرأسى ، ولكن من المحتمل أن يكون نفس المربع فى الصف الرابع الأفقى عند تقاطعه مع الخط الثالث الرأسى .. وبذلك ينعكس الإتجاه .. من الجائز أيضًا أن يكون فى الصف السادس الأفقى عند تقاطعه مع الصف الثالث الرأسى ..

أحس بالحيرة .. التفت أكثر من مرة .. بدأ شعور الطمأنينة فى التبخر .. فى التطاير مع هبات الهواء .. تكاثفت ذرات الصمت .. زمان .. كان يعرف اتجاهه المحدد بالقطع التى خلفه .. يتحرك اعتمادًا على حركتهم .. عليه الآن .. وسط الوحدة الشاملة .. أن يختار إتجاهه المتفرد .. كيف .. كيف وهذا التتابع الرهيب ..

مربع أبيض .. مربع أسود ..

مربع أبيض .. مربع أسود ..

يحط الفراغ .. والبيدق يزداد ضآلة .. لمعة الرأس تختفى .. يحل بدلا منها شحوب قاتم .. لو أنه ظل واقفًا لظل مشلولا .. لمات دون أن يلمسه أحد .. عليه أن يختار إتجاهًا واحدًا يسير فيه .. حوله أربعة مربعات بيضاء .. نفس التوهج والمساحة والأهمية .. نفس نداء الرغبة .. واحد منها فقط هو الإتجاه الصحيح وخلف الباقى يختفى عالم الرقعة المجهول ..

ذهب شعـــور السعادة وعاد شعور العجز القديم .. البالغ القديم .. أين ذهب الجميع .. ؟

كيف تركوه وحده .. ؟

كان يجب على الأقل أن يخبروه أين الإتجاه الصحيح ..

التيارات الباردة تزداد حدة .. تأمل اتساع الرقعة .. اتساع الأرضية .. ملاسة الجدران الرمادية .. تأمل المربعات البيضاء وحاول للمرة الأخيرة أن يختار الاتجاه الصحيح .. ظل واقفًا والتيارات تبعث داخله شعورًا قاسيًا بالبرودة الحقيقية ..

الحركة الثانية :

فتافيت الصخور البنية المتهدمة تغطى وجه الخلاء حتى حافة الأفق .. تكسوه نقابًا داكنًا أشبه بالدم الجاف .. الريح ساكنه تمامًا .. بينما تنزلق الشمس تاركة خلفها مزقا متناثرة من الشفق .

تمتد الفتافيت بلا حاجز .. لا صخور .. لا أشجار .. ترقب الموت النهائى للشمس حتى تغرق فى الظلام .. لم يكن هناك إلا شىء واحد يبرز فوق استواء الأرضية .. كانت هناك منضدة ..

المنضدة الكبيرة تنتصب فى إتجاه الشرق .. خشبها الأرو السميك يبدو عليه القدم والعراقة .. سطح واسع يرتكز فوق قوائم أربعة .. يمثل كل قائم رأس حيوان غريب مائلة إلى أسفل .. أعطته البروزات الخشبية نوعًا من الشراسة المتربصة . ملامحه مجسدة بالحفر الغائرة المليئة بالتراب والتراكمات .. قاعدة القائمة نفسها مقسمة إلى عدد من المخالب ترتكز بثبات ..

السطح الواسع باهت .. ذهب معظم الطلاء اللامع .. ترك خلفه تجاعيد منطفئة كالوجه المجدور .. فى أطرافه تتناثر النقوش الغريبة .. تيمات متفرقة بلا نظام .. آثار قديمة لمسامير مخلوعة .. حفر غائرة لسكين .. ليس لها أى معنى خاص .. فى المنتصف رسم ركيك لقلب بنفس الخطوط التقليدية .. مقدمة عريضة منحنية يلتقى جناحاها فى نقطة وسيطة متأخرة .. وتتركز المؤخرة فى نقطة حادة .. منقوش داخله نفس التيمات الغامضة .. بالقرب منه .. كوّن الطلاء المتساقط رجلا فى وضع غريب .. متداخل الأعضاء .. ورأسه محنية إلى الأمام

أكثر من المعتاد .. وعلى طول السطح العريض تتناثر فتافيت غريبة من الخبز .. خبز جاف ناصع البياض ..

أطراف المنضدة متآكلة بعض الشيء .. تتكون من عدة ثنيات خشبية تنتشر فيها مساحات زخرفية موحدة فى بعض الأجزاء يبدو بطن الخشب الأصفر واضحًا .. خليط من آثار أسنان الفئران .. والحفر الغائرة التى يصنعها السوس الضال ..

سكون تام .. الشمس تنزلق فى بطء شديد .. نقاب الدم الجاف يزداد قتامة .. وكل شيء يزداد ثقلا .. أشبه بالقنوط ..

تمزق صوت ضئيل .. أنّة خافتة .. كانت المنضدة تتحرك .. على وجه التحديد .. كانت القائمة اليمنى من ناحية الشروق هى التى تتحرك .. بدأت المسامير التى تثبتها بالسطح العلوى فى البروز قليلا .. قليلا .. حتى أصبحت كلها فى الخارج .. تناثرت على الأرض خمسة مسامير ، واحد منها فاقد الرأس .. ظهر فراغ رفيع بين القائمة والسطح .. ولد احتكاك الأخشاب صوتًا أشبه بالدمدمات .. بالكلمات المتآكلة .. قاومت لبرهة ثم سقطت متهالكة فوق فتافيت الحجارة البنية .. دوى صوتها المكتوم حتى ذاب على حافة الأفق .. فى الحال .. مالت المنضدة بزاوية حادة فى إتجاه القائمة .. استطال ظلها قليلا فى إتجاه الشرق .. تباطأت الشمس .. كفت المنضدة عن الإهتزاز المتوتر .. لم يستمر السكون طويلا ..

ارتفعت الغمغمات المتآكله من ناحية القائمة اليسرى تجاه الشرق .. تناثرت المسامير .. خمسة .. كونت نفس الإيقاع المتداخل .. طالت مقاومتها .. ظلت متشبثة بالسطح دون أن يظهر الفراغ الرفيع إلا بعد مده .. استمرت حركة

لاحتكاكات المتوالية .. كأنها ألم غامض يمور داخل المنضدة تناثرت قطع اللحام القديم .. ظهر الشق الرفيع .. دوى صوت سقوط القائمة المكتوم .. صوت صارخ قال .. تهاوت مقدمة المنضدة .. اصطدمت من ناحية بالأرضية ، ومن الناحية الأخرى بالقائم الأيمن .. تمزق السكون نهائيًّا .. توقفت حركة الشمس .. توقف أيضًا التجمع الأخير لمزق الشفق التهدئ ..

صوت الدمدمات الخافت .. القائمة اليسرى تتقلص .. مسامير خمسة تتناثر .. يكون السطح على الفور زاوية حادة تسقط دونما أى مقاومة .. يرتج طرف السطح الفارغ .. يتراجع قليلا للوراء .. والقائمة اليمنى تجاه الغرب ترفع الألواح فى إصرار ..

تبدأ الألواح نفسها فى التفكك . سقط السياج الذى يحمل النقوش الزخرفية المتتابعة . تفكك من الجوانب – فى فترات مختلفة – إلى مستطيلات خشبية مليئة بالتجاعيد .. اختفت بين الفتافيت البنية .. ظهرت بين الألواح شقوق نحيلة . . امتدت من الطرف الشرقى للطرف الغربى فى توازٍ ثابت .. اتسعت ببطء .. تحولت إلى أخاديد غائرة .. احتفظت فيما بينها بنفس النسب المتساوية .. فى المنتصف .. تمزق رسم القلب الغائر إلى ثلاثة أجزاء غير متساوية .. تحول إلى نوع من التجاعيد الصماء .. امتلأ السكون بأصوات التأوهات المكتومة .. تلاشت مسافات الصمت .. كتل من الحشرجات والغمغمات المبتورة .. والألواح تتفكك فى بطء قاتل .. تنسحب من فوق القائمة المنتصبة وتتهاوى فى تراخ عاجز فوق الأرضية .. ستة ألواح منفصلة .. وأصدر صوت سقوط اللوح الأخير أنّة طويلة أشبه بالشهقة الأخيرة .. تمايل القائم فى الفراغ .. اهتز عدة هزات .. أحاطته الألواح المتراكمة .. منعت

سقوطه .. ظل منتصبًا .. مائلا .. مثل شاهد قبر مجهول ..

ببطء .. تناثرت الأصوات .. ذابت .. زحف السكون مرة أخرى .. تمطى فى الخلاء الموحش .. بدأت المزق الوردية فى التجمع .. ولمست الشمس أطرافها وهى تنزلق نهائيًّا خلف الأفق ..

الحركة الثالثة :

كانت البنت الصغيرة تكتب كل يوم على الجدار الرخامى .. « أكره الكذب » .. وعندما تأكل من فتات خبز الأكاذيب اليومية تجلس وحدها - فى المساء - وتبكى ..

..كان الولد يقرأ الكلمات فوق الحائط الرخامى .. ويشعر بالوحدة الموحشة .. وتتحول طرقات الكلية الطويلة إلى سراديب داخل جبل الثلج ..

..كانت النجوم تنام على الرصيف ..

حكى لها عن حلم رهيب يلاحقه بإصرار .. كان دائمًا يلهث وهو يرتدى قميصًا ملوثًا بالدم .. قال لها إن الحلم يتكرر دائمًا .. دائمًا .. قالت له .. إن الدم فى الأحلام علامة خير .. قالت له أيضًا .. إنها تخشى النوم .. ودائمًا يدهمها إحساس الموت المفاجئ .. لذلك تنام ويدها حول عنقها ..

كانت تكتب على الجدار .. « لتسقط كل الأشياء التى تتألق بشدة » ..

فتح الباب ببطء .. أطل على قاعة المحاضرات .. شاهد الأشكال الخلفية لرءوس الطلبة والطالبات . والمدرج ينحدر إلى أسفل .. يرتمى تحت أقدام منصة الأستاذ .. كان فكّاه يتحركان بسرعة متزايدة يروح ويغدو .. يكتب كلمات باهتة فوق السبورة الخضراء .. يدق المنضدة ويلوح بيده فى حركة مسرحية ..

فى الصباح ظل الضباب مخيمًا لوقت متأخر .. وعندما أزاحته الشمس الواهنة .. ترك كل شىء خلفه مبللا .. مشبعًا بالرطوبة والقنوط ..

أمام النافورة المعطلة .. توقف طويلا .. تأمل أسراب النمل المتتابعة ..

والعطن الأخضر المتناثر .. والمياه الراكدة .. تذكر أنه لم يتناول إفطاره .. لم يتناول عشاءه .. كان هادئًا لدرجة تقارب الشلل .. لم يكن يشعر بالحزن .. لم يعد الحزن كافيًا .. تحول إلى نوع من الاختناق .. توقف فى حلقه الضيق كل شىء .. الضربات السريعة المفاجئة .. الهمسات الجانبية.السيارات .. نشرات الأخبار .. والضحكات المبتورة .. وكان مبنى الكلية أبيض تمامًا .. ترك الضباب فوق جدرانه آثارًا كالبكاء ..

أحب الشمس .. أحبا الشمس .. ولما سارا معًا فى حضنها شاهدتهما آلاف العيون .. حاصرتهما آلاف الأكاذيب الصغيرة المنمقة .. كانا يخافان الليل .. ولما تكلما .. تلوثت حروفهما بالظلمة .. تلوثت بالخوف من اليوم المخبوء الآتى ..

فى المشرحة – شبه الخالية – أدرك أن الألم المتكرر يولد الفزع .. شعر بطعم اللحم النيئ الممزق فى فمه .. أثقلته رائحة الفورمالين .. تحسس الصدر المفتوح .. القلب الوردى الصغير ممزق إلى ثلاثة أجزاء .. يكشف عن تشابك لحمى قاتم .. يصعد منه الأورطى وينحدر فى جلال آفل عاودته الرغبة فى الصراخ بصوت عال فى الهواء كالحيوانات الجريحة .. لم يكن حوله أحد .. وكان السكون ثقيلا .. ثقيلا ..

كانت صغيرة .. ورقيقة .. لكنها لم تكن ساذجة لدرجة كافية .. وكانت تعانى من الغربة وتخشى الموت المبكر .. آلمه .. أنه لم يستطع أن يحبها لحظة من السعادة .. آلمه .. أنها دائما .. دائما .. تدفع وحدها الثمن .. آلمه أيضًا أنه عندما ركع أمامها وشاهد عذاب القديسين فى عينيها .. وقال لها إنه على

استعداد لأن يهبها عمره .. وإنه فقط يبحث عن لحظة ضئيلة .. مثل رأس الدبوس .. يبدآن منها معًا .. لم تصدقه ..

على سطح الكليه كان وحده أيضًا .. توقف مستندًا بركبته على السور القميئ .. تطلع حوله فى إنبهار صامت .. خيل له أنه لم ير مثل هذا القدر الهائل من السماء والزرقة ، والأفق .. ينحنى خلف الامتداد الأخضر .. والقطع السحابية تتباعد .. والنهر الضيق أمام الكلية يتحول إلى منفذ خانق .. والسمان يلهث .. رفة جناح أخيرة قبل أن يموت فى برارى الشمال .. الأتوبيسات تمرق فى خفوت .. والناس بعيدون .. بعيدون كأنهم حلم .. وعندما تغيب الشمس يتغير لون المياه .. تتحول إلى رصاص منصهر .

رماد – رماد .. الأيام .. والذكريات .. والأغنية تقول ..

بلانش ديبوا .. بلانش ديبوا.. لماذا تهوين وأنت بهذه النشوة .. ؟ ..

بلانش ديبوا .. مسكينه بلانش ديبوا .. أنت تحترقين يا صغيرتى ..

غاصت عيناه فى التقاء الخضرة والزرقة .. تمنى لو أنه قادر على الحركة .. على الطيران .. على الهروب إلى أكثر دفئًا وأقل توحشًا .. أن يمسك يدها ويعطيها بعض الأمان .. يحدثها عن الرجال والنساء الذين يرقصون رقصة الموت ولا يكفون عن ممارسة الحب .. والبراكين التى تتلوى تحت قشرة الأرض الجهمة .. والنيازك والشهب .. تتوهج سريعًا .. تحترق سريعًا .. وأهداب العيون .. وعيون البنادق .. والمراعى الكثيفة الخضرة .. والجزر الضائعة .. وأزهار البانسيه والذكريات الذابلة .. وأحلام الصوفيين القدامى .. والأنهر المختفية تحت تشابك الحلفا .. ونجم الميلاد المتألق الحزين الذى كان يراه دائمًا فى عينيها .. وعن الحب بلا خوف .. وعن السعادة بلا ثمن ..

والرغبة بلا اشمئزاز ..

كان السطح خاليًا .. كانت الطرقة خالية .. ومرعى العشب .. والغرف المغلقة ذات اللافتات السوداء .. والسلالم الطويلة المتعرجة .. ومناضد الكافتريا الملونة .. كان وحده تمامًا .. ويشعر بالرغبة الحادة فى البكاء .

١٩٧١

الأحزان القديمة

الحكاية الأولى

علاء الدين

عودى أيا قرة عينى ..

أنا علاء الدين التعس .. فى ظهرى أثار أشواك الحطب الدامية . نفد الزيت من مصباحى ولازلت أتعثر فى الظلام . ألبس الدمقس . أشرب من كؤوس الفضة . أتكئ على حشايا النعام . لكن ماذا يجدينى والصفقة كلها – منذ البداية – خاسرة .. ؟ .

فى وسط الصحراء أخلع عباءتى . قناعى الأخير . ومازلت أناديك أيا قرة عينى لماذا تركتنى فجأة .. ؟ قالوا إنك عشقت بائسًا حقيرًا . شحاذًا كان على باب قصرى .. عشقت قاطعًا للطريق ، وإنك تمضغين الصبار .. عشقت المغربى العجوز .. تعشقين الجميع ما عداى .. ويلى كأسى فارغة حتى من المودة .. والصمت كالجبل . وأنت طيف رائق كالنجوم . نابض كتردد الأنفاس كالمد والجزر ويلى منك . وأنت بعيدة .. ومن سهام الثلج ومن عيون المغاربة القاسية .

عندما انتفض المصباح بين أصابعى كانت صرختك أنت . والملح فى جوف المغارة يكوّن أشكالا غامضة تحمل نذير الوعد والمكتوب . وأنا أحك جدار المصباح المعدنى الصدئ بجنون المحرومين .. حذرتنى .. أدرك ذلك .. ضحكت لحظتها .. يا بلهاء . من ذا يرفض قصر السلطان .. يرفض تاجه وصولجانه مهما كان الثمن . لم أكن مخطئًا لهذه الدرجة الرهيبة .. ما يدرينى أن العطن يرقد خلف كل شيء .. وأن الأشياء البراقة دائمًا زائفة . ما يدرينى أن اللعبة لا تخصنى . وأننى تعس كزهر الصبار .

بالأمس حاول الخدم سرقة عقود الياقوت والزبرجد .. انتهزوا فرصة نومى وأنا أحلم بك حلمًا قلقًا .. وعندما علمت صلمت آذانهم .. كنت أخفى خلف خوفهم خوفى .. وخلف بكائهم بكائى .. وأمى العجوز تصرخ خلف النوافذ . أحضرت لها أعظم أطباء بغداد . كانت تغافل الجميع وتبتلع قطع الذهب وفصوص الماس .. حاولت إفهامها أن كل شيء ملكنا . حقنا المشروع فلنحاول قليلا يا أمى أن ننسى ذكرياتنا المرة .. لكنها ظلت تغافل الجميع حتى امتلأت معدتها .. وكان زيت المصباح يتناقص .. أيامى التى مضت .. أيامى القادمة . لحظاتى التى بعتها بثمن بخس .. أياقرة عينى ألم تكونى مخطئة عندما ذهبت بعيدًا لهذا الحد .. ؟ .. كنت فى حاجة ملحة لكلمة منك .. تقولين عد . تقولين أطفئ ذبالة المصباح . إنزع الأقنعة عن وجوه المغاربة . دع المغارات للخفافيش وعشاق الظلمة .. لكنك ضننت علىَّ بالكلمة الأخيرة .

* * *

– يا مولاى .. بحثت عنها فى كل مكان ..

– هل أصابك العجز ؟ ..

– فتشت كل القبور .

– هل أصابك العجز ؟ ..

– لكنها يا مولاى .. يبدو أنها تكرهك إلى حد كبير .. هناك أسوار لا أتخطاها .

– أيها الجن الخائن .

على القبر وضعت قبضة التراب الأولى .. وضعت قبضة التراب الأخيرة .. تذكرت كم عاشت مسكينة وماتت مسكينة .. كانت تأخذنى فى أحضانها . وتنزع – بدفئها – برودة الغابات الليلية من عظامى . أحسست بالأشواك الدامية فى ظهرى برغم الفراش الحريرى .. بالعرى والجوع .. فقدت كل شيء .. خسرت كل شيء .. أى شيء بقى ولم نبعه بعد .. ؟ ..

على الصخرة البعيدة فى نفس المكان .. كان المغربى العجوز جالسًا يحدق فىَّ وأنا أخوض أحراش العظام النخرة .

– أيها المغربى الحكيم .. ماذا لو ألغينا الصفقة .. ؟

– لا أرد بيعة أبدًا ..

– صفقة خاسرة .. روحى زائفة ..

ضحك بصوت هادر واختفى .. وماذا كسبت أنا .. ؟ .. مازلت وحدى فى المسالك المجهولة . تركت القصور والعبيد والمصباح لكننى لم أبتعد كثيرًا . تحيط بى قبضة الأرض الصلبة . تراقبنى الوجوه المنهكة .

تحدق بيأس أحيانًا . وبشماتة أحيانا أخرى .. عشرات الوجوه التى

عرفها .. أهل وأصدقاء وخلان .. كلهم معلقون فوق قمم الأشجار .. يموتون ببطء مر .. قالوا :

– خدعنا المغاربة .. أعطونا المصابيح وسلبونا كل شيء ..

حاولت الهرب .. أن أتفادى قدرى الزائف .. وعيون المغاربة تترصدنى من خلف التلال .. وأنت يا قرة عينى تركتنى .. أخذت بشارات خلاصى .. تركتنى أقضى دينى الفادح وحدى .. أهتف باسمك ولا أجد سوى الصدى والموت .

الحكاية الثانية

معروف الإسكافى ..

دكان مغلق .. بيت مهدم .. وفتات من الذكريات الباهتة ..

قال الجيران : ماتت زوجتك .. همهم متبرمًا ولم يشعر بأى حزن أو أسف ..

قالوا أين كنت .. ؟ حسبناك قدمت .. انفجر ضاحكًا .. مازال الحى القديم كما هو .. حارات ضيقة . أرض طينية لزجة . بيوت متلاصقة فى تحفز .. وكل شيء يغمره التراب ..

تجمعت حلقة من الأطفال والنساء ثم جاء الرجال بعد ذلك . وقف وسطهم لا يستطيع مغالبة ضحكاته .. ضحك ناعم له متعته الخاصة .

– تسألوننى أين كنت ؟ .. وأين الكلمات التى تصف وتعبّر . تخيلوا شمسًا أكثر وداعة ، وظلمة رقيقة ، وأحلامًا بلا كوابيس ..

لم يكن سيره لاهثًا متوترًا مثل أيام الجوع القديمة .. كان أشبه بالانسياب . رقصة بسيطة كاهتزاز البنات يصحبها إيقاع خافت .. ساروا خلفه .. كتلة شاحبة ملوثة بالطين وبقايا الذباب .. تهامسوا ..

– معروف الإسكافى .. يالله .. لم يمت .. أصبح يضج بالحياة ..

شعور السعادة الخالصة مازال طازجًا فى أعماقه ، والحى القديم يكشف نقابه المتهرئ .. الذكريات الرطبة . بيوت الأصدقاء القدامى . المقهى وجدرانه الملوثة بالدخان .. المشربيات المتداعية والعناكب تحط فى كل ركن .. وهو لا يكف عن الكلام .. تذكارات عذبة لا تتناثر من فمه وتسقط فوق الأرض الحارة . بل

تذوب على لسانه مثل قطع الحلوى ..

– لا يوجد براغيث .. ولا نقود .. ولا حراس .. ولا نكت بذيئة بالطبع ..

حيرة مبهورة . نسوة على أبواب البيوت . شفاه جافة . تحت الجلد تتشابك التفرعات الزرقاء .. تساءل حائرًا .. هذا الضمور كله ولا تزال فيهم بقية من حياة .. ؟ .

أكانت زوجته هكذا .. ؟ كان لسانها سليطًا .. تركها ذات ليلة ورحل وما حسب أنه سيعود أبدًا .. رحل غريبًا وعاد غريبًا .. لكن صفاء العوالم المجهولة كان يغمر أعماقه .. عالمه القديم كان مرسومًا فوق النعال البالية ، والحالة الضنك والشكوى بلا جدوى .. ولسان زوجته لا يهدأ ..

– أرض للجميع .. نساء للجميع ..

فى كل ليلة رقص وغناء حتى الصباح . تخطى باب الحارة الضخم . ازداد عدد السائرين خلفه . وجد نفسه فى حارة أكثر ضيقًا وقذارة . حارة بلا اسم . البيوت المتلاصقة فى تحفز تحاصره . تنشر فى الجو دمدمة غامضة . لا فقراء . لا أغنياء . كلهم على نفس الدرجة من الرضى والسعادة .. طوال هذه المدة لم أشاهد شرطيًّا واحدًا مال نحو رجل جالس جنب الحائط .. ولا شحاذًا واحدًا .

هذه المرة ظلت البيوت صامتة . لم يفتح أى باب ولم يخرج إنسان . فوق الضلف الخشبية تتابعت بقع الشمع الأحمر فى رتابة . بقع مهوشة – أشبه باللطمة – فوق كل مزلاج بجانبها منشور أبيض حاد الكلمات فى ذيله التوقيع المعروف .. بأمر الوالى . بأمر الوالى .. دونما إرادة بدأت ذرات المرارة تتكاثف داخله .. توقظ الحزن الباهت والذكريات المطموسة .. أشتات الطفولة والشباب .. طعام الطين وهواء العفونة ..

– لا أثر للبرد .. للجوع .. للبؤس .. لا مشاجرات على الإطلاق ..

ارتفع إيقاع الدمدمة .. كأنما تنفجر من داخل الشقوق .. تتخلق من ركام الرطوبة والشحوب . التفت خلفه فى فزع .. شاهد كتلة الرجال والنساء ترتعد فى شراسة محمومة .. من خلال الأسنان الصفراء والعيون المنهكة تنفجر التأوهات مثلما الجرحى المحتضرين . بدأ يشعر بالخوف . كان قد فقد هذا الشعور لكنه عاد يداهمه الآن أشد عنفًا .. قال :

– لكنهم لا يغفرون أبدًا ..

ساحة الحى .. السبيل المعطل . المسجد ذو المئذنة المكسورة .. الطين . الرجال الهزالى مقعون .. مازالوا – كما تركهم فى الزمن القديم – متناثرين فوق الأرصفة فى تعطل أبدى . ينتظرون الفرج الذى لا وجود له .. يداهمهم حرس السلطان كل لحظة .. يسلبونهم كل شىء حتى ماء الوجه .. انتصبوا فى خور .. انضموا للباقين .. فطن فجأة للكابوس الهائل .. ماتت الذكريات وسط الغمغمات الجائعة ..

– ظلوا ينتظرون خطيئتى الأولى .. خطيئتى الأخيرة .

أى أحلام تستيقظ . أى أحلام تموت . يتدافعون حوله فى يقظة مفاجئة . لا نهاية لدمدمة الحشود العاطلة . والنسوة اللاتى يبعن أنفسهن ، والأطفال نصف المبصرين . نصف العقلاء ..

– وأنا أخطأت مرة واحدة .. (ولأول مرة تعلو صوته نبرة من المرارة ..) مرة واحدة فقط ..

ولكن كم مرة أخطأ الجميع .. أى عقاب صارم حلَّ بهم .. مجرد خطيئة .. نولد وننمو ونموت وننشر العفونة .. التفوا حوله وحاصروه .. كان الأمر مجرد

حلم خدش فى جدار العجز .

– انتظروا إنها خطيئتكم أنتم .

الوالى . الضرائب . الحراس . السجون . الذباب والبراغيث .. أخطاؤنا الصغيرة القاتلة والوجوه الشاحبة تدمدم ، والأيدى الضاريه تمتد .. توسل :

– أنصتوا قليلا . أنا إسكافى .

وعندما تتلوث القدم .. يعنى هذا أن الحذاء مثقوب .. انصتوا .

لم يعد يرى شيئًا .. العيون بقع حمراء متصلة .. الأسنان الصفراء تزأر .. شاهد زوجته تتلوى وسطهم .. شاهد النعال القديمة .. وطريقه الطويل .. وأيام وحدته .. وخطيئته الصغيرة .. وأدرك أنه مهما صرخ فلن يبالى به أحد ..

الحكاية الثالثة

زينة النساء ! ..

قبل الغروب هبطت « زينة النساء » من بيتها الصغير وسط المدينة .. ألوان ثيابها باهتة وعلى وجهها نقاب كثيف .. منذ مدة طويلة تركتها جاريتها وبدأت هى تستمرئ الحزن والوحدة ..

السماء بعيدة وقطع السحاب مثل زبد البحر .. شوارع بغداد الضيقة مزدحمة .. المصابيح الصغيرة المعتمة منذ أول خليفة لم يوضع فيها فانوس واحد .. عربات فارهة تعبر الطريق بجنون تتبعها موجات طويلة من الاحتجاجات العاجزة .. كانت الأصوات تخفت .. تذوب .. ووقع السنابك يتلاشى .. كتل المارة المتداخلة فى كل اتجاه . التجار الذين يعرضون بضائع الهند والسند .. البيع والفصال .. كل ذلك دون أى صوت .. ليس أكثر من حفيف خافت .. فجأة أحست « زينة النساء » كأنها تسبح فى النهر .. تغوص وحدها فى أحضان دجلة الصافية .. عارية تمامًا .. وفى القاع كانت آلاف القواقع والطحالب والمخلوقات الغريبة تراقبها فى انبهار خالص .. وعندما كانت تصعد برأسها أحيانًا كانت ترى السماء صافية كبطن النهر ، يحيط بها إحساس تام بالنقاء حتى أنها للمرة الأولى لم تخجل من جسدها العارى .. لم تخجل أن يراها أحد .. كان الماء يمتص كل الرغبات النزقة .. كان باردًا ورقيقًا لكنه لا يبعث على السعادة .. لا يوحى إلا بشىء ما كالشجن العميق الممتد .. « زينة النساء »

خلف نقابها الكثيف تبكى نفسها .. وشوارع بغداد تضج بالحركة ودون صوت ..

أمس بلغت زينة النساء عامها الثالث والعشرين . مرت لحظة منتصف الليل وهى منزوية فى ركن صغير بالحجرة .. لم تجرؤ على الحركة .. أو إضاءة مصباح واحد صغير .. قالت لنفسها للمرة الأولى ..

- لم يعد هناك جدوى من الإحساس بالزمن .

قال رجل عابر - يبدو أنه كان غريبًا عن بغداد - هه يا آنسة .. هه .. وانصرف سريعًا وقفت وسط الميدان . أمام تمثال الخليفة الأول . كانت تتألم من النظرات التى تحاصرها تذكرت أن نظرته هو كانت تختلف تمامًا .. تلك العين الصغيرة البراقة المتعبة التى لا يخفت توهجها .. تطل منها نفس النظرة الطفولية الغريرة ، كأنما تكشف العالم للمرة الأولى وبطريقة جديدة .. من خلال وجهها يتلمس بأطراف أصابعه جبينها الناصع ويهتف فى اهتمام بالغ ..

- هل أخبرك أحد ما .. أن جبينك أحلى من الفجر والشروق ..

تضحك - حتى وهى عصبية وملولة .. أخبرنى شاعر أبله ذات مرة .. يضحك هو ويزيح شعرها النافر خلف أذنها وفى المساء - أى مساء غريب - كانت تجلس وتتلمسه وتكتشف فى اللحظة أنه مصنوع من نوع رقيق جدًّا من الزجاج .. يشف حتى الموت . تتلمسه وتخشى أن تجرحه .. أن يجرحها .. وعندما أخبرتها الجارية أن العيون السوداء تترصدهما فى السوق وخلف المشربيات وأمام البيت .. كان يبدو شاردًا وحزينًا فوق العادة .

لم تستطع قراءة الكلمات التى فوق قاعدة تمثال الخليفة الأول .. حدقت فى كل اتجاه هذه بغداد . أجل مدينتنا الغريبة وحلمنا الكئيب .. كم مرة أخذها فى

يده وطافا معًا فى كل الأماكن . فى الصباح البارد والمساء .. انظرى .. هذه بغداد .. طرق طويلة ومتشعبة كخيبة الأمل .. مزدحمة بالوجوه الخجلى من الشمس .. أن تعريها أن تفرى جلدها .. والنهر إذ يعبر المدينة .. كم هو خائف وجل .. والمشعوذون فى أطراف الأزقة يحلمون بالفردوس والمهدى المنتظر .. تموت الأشعار مختنقة وسط روائح المسك والكافور والمر .. ويباع لحم العالم الأبيض فى السوق الواسع بدنانير بخسة .. آه يا بغداد .. عندما تعطين النخاسين أكبر الأوسمة. والمكافآت لأشرس الحراس. لا يبقى هناك مكان للحب ..

زينة النساء وحدها .. لا ندرى كيف اختفت زحمة المرور فجأة .. التمثال يحدق فيها ببلاهة .. عرفها وألف ملامحها ، وأدرك أنها تعطيه الآن ظهرها حتى تعبر النهر إلى الجانب الغربى من المدينة .. لم يكن الجانب الغربى إلا قلعة موحشة .. ترقب المدينة كلها فى غضب متحفز .. تنتظر اللحظة حتى تنشب فيها أظافرها الحجرية .. كانت زينة النساء تتضاءل .. تتضاءل .. والسور يكبر .. ينتفخ .. يبتلع السماء .. وفى الأعلى كان الحراس يرقبون مقدمها .. يتوقفون عن السير .. يتأملون لحظة عبورها الإنسيابى الحزين .. يتهامسون ..

- هذه هى .. أجل .. هى ..

- تصور .. تحسب أن شاعرها مازال موجودًا عندنا ..

- تصور .. حمقاء ..

تواجهها الحجارة الضخمة فى تحد .. تخمشها كالطيور المفزوعة دون صوت .. كانت أحلام اللحظة قد ماتت .. وأصبحت تدرك بطريقة غامضة أن المساء قد أتى ، وأن الليل يربض خلفه .. وصبح .. ومساء آخر .. وأيام انتظار باردة ..

الحكاية الرابعة

السندباد ..

أجراس البصرة تدق تكريمًا لسندباد .. قاهر البحار والعواصف بعد أن عاد من رحلته السابعة . لكن الذى يدقها هو أشهر مزايدى السلطنة .. وصوته الأجش الذى يعرفه كل التجار يدوى ..

– اللاأونا .. اللادوى .. اللاترو .

فى ميناء البصرة الواسع ترسو سفينة السندباد .. سفينة وفية .. مخر بها عباب البحر وقهر تشنجات المد والجذر .. تقف مزدانة بالأزهار والرياحين تكريمًا لرحلتها الخالدة .. وعلى مقدمتها لافتة صغيرة سوداء مكتوب عليها بالطباشير كلمة واحدة .. « للبيع » وفى الجانب الأيمن يقف سندباد .. وفى الجانب الأيسر يقف البحارة .. فى الوسط يقف تجار السلطنة يتهامسون فى ود ..والمزايد الشهير أمامهم تمامًا .. يدق الجرس ويقسم على إيقاعاته مقاطع الكلمات .

– فرصة عظيمة .. أعظم سفينة شهدتها السلطنة .. سفينة سندباد العظيمة .. همهم التجار بصوت مسموع :

– سفينة مستهلكة .. نخرها السوس .. يجب أن تفك وتباع أخشابًا بالقطاعى .

والسندباد يحدق فى الوجوه كأنها ترتدى أقنعة غريبة .. كأن ما يجرى مجرد لعبة هزلية طال أمدها .. والحارسان – واحد على كل جانب – يمنعان حركته كلما حاول التملص ..

– نبدأ بأربعمائة دينار .. هه .. من يزيد ..

تبرم التجار .. زعق أحدهم ..

– ولا أربعمائة درهم .. ماذا يجدى شراء السوس ..

زعق السندباد يسب التجار .. رفيقة عمره الغالية . وجدت قبل أن توجد السلطنة .. ووقف هو خلف دفتها قبل خلق العالم .. زعق فيه المزايد :

– إخرس خالص دعنا لشغلنا (التفت ناحية البحارة ..) .. هيه ..

تقدم « السنان » رئيسهم .. رفيق رحلاته السبعة .. قال ..

– لا بعد من البيع .. نريد مرتباتنا ..

دق الجرس .. ثلاثمائة إذن .. مائتين .. سفينة فى حالة جيدة .. ومستعدة للإبحار فى الحال .. قال أحد التجار وكأنه تورط :

– مائة وخمسون .. يا لله .. هه .

دار المزايد ببصره فى الحاضرين .. قال فى أسف .. فقط ..

لم يرد أحد .. وافق السنان بهزة من رأسه .. وقع المزايد عقدًا باسم التاجر .. كان العبيد قد نزلوا قاع السفينة فى الصباح وأخرجوا محتوياتها .. أشار لهم المزايد فأحضروا أمامه أربعة صناديق ضخمة . والجرس يدق ..

– الآن .. جاء دور المحتويات ..

كتب السندباد التى جمعها فى كل أسفاره .. مرة أخرى يزعق ولا أحد ينصت .

كانت هذه رحلة عمره الحقيقية عندما حلم ذات يوم بجنة الأرض الموعودة .. أحضر كتب الفلسفة من بلاد اليونان .. والحكمة من فارس ..

والسحر من الهند .. والقانون من بلاد الروم .. كتب قديمة صفراء .. لكنها حصيلة آلاف البشر الذين تعذبوا وصلبوا وماتوا .. زعق المزايد .. مائة دينار ..

انفجر التجار ضاحكين .. قال أحدهم محاولا تمالك نفسه ..

– يا رجل .. هذا مجرد ورق « دشت » ..

استطاع السندباد الإفلات من أيدى الحارسين .. توقف أمام بحارته القدامى .

– أتوسل إليكم .. تذكروا ما فعلناه معًا .. نحن رفاق العمر ..

قال السنان :

– كان ذلك قبل أن يصيبك الجنون .. كنا دائمًا نعود بالغنائم والذهب لكنك هذه المرة ملأت السفينة بالتفاهات .

– كل مرة كانت زيفًا هباءً .. رحلتنا الأخيرة .. كانت من أجل الحقيقة .. ألم تفهموا بعد ؟ ..

دق المزايد الجرس .. قال ساخرًا :

– الحقيقة بلا قيمة يا سيد .. تمامًا مثل قطرة الماء المالح .. خمسون دينارًا .. ثلاثون دينارًا ..

أعاده الحارسان .. وافق أحد التجار متبرمًا على شراء الصناديق بعشرة دنانير .. ونجح المزايد البارع فى أن يزيد خمسين درهمًا .. تأمل السندباد وجوه بحارته .. ربما للمرة الأولى . رفاق الليالى الصعبة . جاءوا عبر البلاد البعيدة وربط القدر المجهول خيوط المصائر الرفيعة . عبر المحيط وبحر الظلمات .. والآن تطل من عيونهم نظرات اللامبالاة الباهتة .. الباردة كالموت .. وضع العبيد عدة صناديق ضخمة وأخذوا يخرجون محتوياتها . آلات من الحديد والزجاج

غريبة الشكل . نثروها بلا مبالاة . آلات لرصد الفلك والنجوم .. أسطرلابات ومزاول .. قياسات للملوحة والأعماق . للحرارة والضغط معامل زجاجية كاملة للتقطير ولتخليق المواد . أنابيب وخزانات خزفية ..

والجرس يدق كالنعيق ..

فرصة عظيمة .. آلات غريبة . ، لزوم الحواة والمشعوذين وكل شطار السلْطنة .. تقدم تاجر وقال بحسم :

– إسمع لا تهول .. إنها لا تخرج عن كونها قطع من الحديد وسأشتريها بسعر الكيلو .. رن .. رن .. أقمشة غريبة ليست من الصوف ولا من القطن . رن .. رن .. نباتات فى علب زجاجية خاصة . ركام هائل من الأشياء التافهة لا تستحق عناء البيع والفصال ، هبطت الدنانير إلى الدراهم .. إلى أنصاف الدراهم .. ووجوه البحارة لا تلين .. رن .. رن .. رن ، . ويصيح المزايد ..

– آخر قطعة .. علبة من القطيفة مطعمة بالفضة ..

زعق السندباد .. كلا .. صرخة مبحوحة وجريحة ..

– دعوها لى .. إنها تخصنى وحدى ..

تطلع إليه المزايد بازدراء .. فتحها .. كان بداخلها وردة حمراء جافة ورسالة صغيرة مكتوبة بعناية .

ألقاهما بلا مبالاة وعرض العلبة للبيع وحاول سندباد الافلات .. أمسكه أحد الحراس .. أسرع الآخر ودهس الوردة الجافة والرسالة المطوية فى الطين ..

والسندباد يصرخ ثم يجهش فى بكاء طويل متصل ..

وبرغم ذلك لم تف المزايدات إلا بنصف المتأخر من المرتبات ..

١٩٧٢

البـــوار

عن أبى . عن السوق . والثلاثاء الأخير . وعيون محاسن . والذكريات الميتة ..

أبى .. نظرة خوف متوتر وخطى سريعة .. الصباح بارد . الطريق موحل .. والشمس لم تشرق بعد . وأنا ألهث خلف أبى .. أحاول اللحاق به أو النظر لوجهه المحتقن .. الشارع الجانبى - الذى يؤدى إلى شارع السوق الرئيسى - أوشك على الانتهاء .. لم نتبادل كلمة واحدة مذ خرجنا من البيت .. يوم الثلاثاء الأخير . (عز الموسم) كما يقولون .. تصادف أن كان عطلة من المدرسة ، ومنذ الأمس وأنا ألح على أبى - تساعدنى أمى - فى الذهاب معه .

.. مثل الأيام الماضية عندما لم يكن الشتاء بهذه البرودة ..

هتف أحد الصنايعية فجأة .

- ياه يا معلم منسى .. القماش .. ياه ..

تمهل أبى قليلا . خلفنا اثنان من « الصنايعية » .. يحملان كومتين كبيرتين من قطع القماش .. كان الصنايعى العجوز هو الذى يتألم .. منذ أن ولدت وأنا أراه خلف (النول الخشبى) .. يحسب الوقت والأيام تبعًا لإيقاعات « الدف » و « المكوك » .

نظر أبى نحوه .. أعرف نظرته عندما يكون حزينًا .

قال العجوز فى وهن ..

– حمولة يا معلم منسى . نرجع خفاف بعون الله ..

ظهرت ملامح الشارع الرئيسى . اختلطت دمدماته الخافتة مع أنفاس الصباح .. تغيرت الملامح القديمة .. قال أبى فجأة ..

– أصبحت المحلة لا تطاق ..

أخذت أتنفس بصوت مسموع . والصور والمرايا تفتح أبوابها . الدكاكين الواسعة المملوءة بالألوان بعثت رائحة السوق التى أعرفها جيدًا . بعض الطمأنينة فى داخلى . التفت أبى نحوى فى حدّة ..

– إسمع لا أريد مشاغبات اليوم .. فاهم ..

تأخرت خطوة .. قال العجوز مهوِّنًا ..

– صلى على النبى يا معلم .. نهارنا فل ..

قال أبى ببعض الود:أصبحت المحلة غريبة . وأصبح الواحد فيها غريبًا والله .

مكان أبى فى نهاية الشارع لا يغيره أبدًا . كذا لا يغير جلبابه الصوف الأسود . يطويه فى عناية وتحفظه أمى فى قاع الدولاب حتى يوم السوق .. كأنه أحد علاماته المميزة .. اشتعلت الحركة . من الشوارع الجانبية للسوق بدأت وجوه « المعلمين » فى الظهور .. كنت أعرف الكثيرين منهم . طالما جاءوا إلى أبى فى القاعة الرطبة التى بها الأنوال وجلسوا يتناقشون فى مشاكل القطن والحرير والصنايعية المشاغبين . تعالت همهمات الصباح الممطوطة « صباح الخير » .. صباح ندى .. الشتا نايم .. آه نايم .. الحرير نار .. والقطن ضعيف .. اليدوى .. ربنا يستر .. صباحنا لبن ..

نتقارب الخطى والأنفاس . تتشابك أطراف الأحاديث المبتورة .. والجماعة تزداد .. خلف أبى مازال زوج الصنايعية يسيران يحمل كل منهما كومته .. خلف المعلم نونو يسير ثلاثة . خلف عبده اللجهورى أربعة . إبراهيم سلطان ثلاثة . عبد المنعم واحد فقط يسير بجانبه فى حين يحمل هو بقية القطع . الدسوقى حامد خمسة بأكملهم يأخذون حيزًا كبيرًا من الشارع .. عبده فرس لا أحد ، يحمل كومته الصغيرة فوق ذراعه ويمضى صامتًا تمامًا .. و .. و .. « الأحوال كالمكوك .. مرة شرق .. ومرة غرب . وربنا يستر .. » كانوا مهمومين . يحاول كل منهم أن يقرأ فى عين الآخر مصير اليوم . على الجانبين فتحت الدكاكين الواسعة أبوابها . أفواه فاغرة .. مملوءة بأقمشة المصنع الغريبة الألوان .. الرخيصة السعر تتطلع نحو صف « المعلمين » وهم ينحدرون نحو سوق اليوم الغامض فى سخرية صامتة . مساء الأمس .. ظل أبى جالسًا أمام المصباح الغازى ، يحاول عبثًا التوفيق بين الأرقام النحيلة المتضاربة .. ترقبه أمى فى إشفاق عاجز . يضع القلم ويتنهد فى حيرة وكنت ساعتها أشعر بالخوف والبرد . كان ثمة شىء يقترب .. يترقبه الجميع ولا يستطيعون دفعه ..

فى نهاية الشارع أمام بقالة عم « فتح الله » الكبيرة .. وضع الصنايعية الأقمشة .. تبادل أبى مع عم فتح الله تحية سريعة وشعرت أنا بالسرور فجأة .. تأوه العجوز مرة أخرى فحمل أبى الأقمشة عنه وبدأ يرصها فى صفوف رأسية . وظل الصنايعى الأصغر سنًا صامتًا كأنما يعانى من لحظة غضب دائم . اقتربت من الدكان المترب . كانت الأرفف مزدحمة لدرجة خانقة .. حدق فتح الله فىَّ من خلف نظارته السميكة ..

– إزيك يا محمد ..

كان يأكل بعض مخارج الحروف .. سألنى ..

– فى سنة كام . ؟

– رابعة ..

همهم فى رضا . أقبل جرسون القهوة مسرعًا . تأمل صف الصنايعية والمعلمين .. فرك يده وهو يتظاهر بالسرور .

– مجبورون بعون الله ..

لم يعد أبى يطيق البلدة العجوز .. دكاكين التجّار الجدد تتناثر . بقع لونية فاقعة . تجوس الأقدام الغريبة كل أرجاء المحلة . تمتد الطرقات الطينية فى تثاقل . أذهب للمدرسة أعود من المدرسة . يميل الصهريج العالى كأنه على وشك السقوط . وتذوب آخر الشموع فى كوات مسجد النوبة . ولا تبتعد سحابة الخوف الرمادية الداكنة .

يومها لم أكن أدرى لماذا أصبح يخشى يوم السوق بعد أن كان يتلهف شوقًا لقدومه ..

لم أدر ماذا يعنى وجود المصنع الضخم فى شرق المحلة . وآلاف الماكينات التى تهدر دون توقف . ولازالت دقات الأنوال الخشبية فى غرب المدينة تتابع كالأنين ..

انتهى المعلمون من رص الأقمشة فوق الرصيفين المتقابلين .

والجرسون يتحرك حاملا صينية الشاى . الصنايعية جالسون جنب الجدران أكثر خوفًا وبلادة . وأنا .. أفكر فى محاسن .

– عم فتح الله .. أين محاسن ؟ .

رفع عينيه من فوق الكتاب الأصفر الضخم . قالت لى محاسن إنه يصنع

منه أحجبة ويتلو بعض التعاويذ بعدها يستطيع مخاطبة « بسم الله الرحمن الرحيم .. » مباشرة ..

– ستأتى حالا ..

لحنى أبى .. يا ولد .. أنا قلت لك ..

ازداد ارتفاع الشمس .. بدأت قطع القماش الحريرية فى اللمعان .. تمهل بعض العابرين فى فضول لا أكثر .. ولم يظهر أى واحد من التجار المعروفين . تبادل المعلمون النظرات من فوق الأرصفة . عاد الجرسون بعد أن جمع الأكواب الفارغة وبها بقايا التفل .. قال محمد نونو فجأة محاولا المرح ..

– ناموسيتهم كحلى ..

ضحكوا فى خشونة مختنقة .. بدأت الحركة فى منتصف الشارع والأرصفة راكدة .. راكدة توقف بائع الحلوى أمامنا . عجوز لدرجة كبيرة . يمسك عصا طويلة كلما هزها أصدرت قمتها صوتًا خشنًا فى حين تنزلق قطع الحلوى إلى أسفل .. كان يهزها فى وهن ويزعق بصوته الأسيان ..

– حلاوة زمان ..

يهتف عن شىء غريب فائت .. ماض لن يعود .. كان حلوًا .. وكان سكرًا .. وأبى يحدق فيه بجمود جريت نحوه .. أعطانى قطعة كبيرة من الحلوى . وأبى يتحدث عن غلاء الحرير والقطن

يشير إلى شرق البلد حيث يرتفع المصنع . وتفتح الدكاكين الجديدة لتلتهم السوق وتترك لنا المرارة . واليدوى .. اليدوى يا عالم .. تعبر السيارات الضخمة شوارع المدينة .. تتوقف قليلا حتى يشم الجميع رائحة الماكينات الجديدة .

فى القاعة الرطبة – التى يملكها أبى – خمسة أنوال خشبية .. يجلس خلفها خمسة من « الصنايعية »من الصبح حتى آذان المغرب .. وكل يوم تتجمع أمام أبى خمس قطع وتفرد خمس أيدى أصابعها تطلب حق عرقها ورزقها اليومى .

أجل . أصبحت المحلة لا تطاق كما يقول أبى . زمان لم نكن ننتظر شروق الشمس .. زمان .. قبل الحرب . كان أبى يمتلك عشرين نولا . وزمان أيضًا كان التجار يظلون فى انتظار ممض فوق الأرصفة الخالية والرجل العجوز يكرر بصوت مشروخ أكثر أسى .. حلاوة زمان .. وخيل لى إننى سمعت أبى يتحسر فى صوت خافت .. هتفت :

– محاسن ..

لم يسمعنى أبى لحسن الحظ .. ابتسم الصنايعى العجوز فى خبث .. ابتسمت هى ابتسامة صغيرة . كانت تلبس فستانًا ملونًا وعصبة رأس حمراء ووجهها حلو فوق العادة .. كان أبوها مشغولا بجمع كبير من زبائن السوق . يناولهم حاجاتهم فى سرعة حتى يعود إلى الكتاب ..

– إزيك يا محاسن ..

أحسست أنها غير مبالية . كانت أكبر مما رأيتها منذ خمسة شهور .. حاولت أن أكلمها بسرعة عن المدرسة . عن الإجازة الأخيرة عندما كنا نلتقى كل ثلاثاء .. زعق أبوها ..

– لماذا تأخرت يا بنت .. أووف من دلعك ..

نظر أبى إلىَّ بحدة . اختفت محاسن خلف كتلة الزبائن . هتف الصنايعى العجوز وهو يلمس كتف أبى ..

– معلم منسى .. بص .. المعلم محجوب التاجر ..

قال ذلك فى لهجة فرحة . أشرأبت الأعناق . نبضت الأرصفة بالحركة . اتجه التاجر نحونا .. أدركت أننى قد أفلت من مراقبة أبى . أصبح باسمًا وقد تبخرت نظرة الخوف من عينيه .

فتح ذراعيه مرحبًا ..

– أهلا معلم محجوب ..

كان سمينًا رخوًا .. يمسك مظلة واسعة ذات قبة خضراء .. تناثرت حوله التحايا من بقية المعلمين .. فركوا أيديهم فى أمل وبدأ أبى والتاجر جولة مرتبكة بين مقاطع الكلمات .. «كيف الأحوال ..؟ ماشية . الأولاد .؟ عال . محمد ابنك ؟ محمد ابنى فى المدرسة .؟ . عال عال ..» .

قال الرجل فجأة ..

– جولة سريعة .. كنت أريد أن أعرف حال الأسعار

غاصت ابتسامة أبى .

خف زحام الزبائن بعض الشىء .. محاسن تتحرك بسرعة .. زمان .. كنا لا نكف عن الضحك واللعب معًا تقول أمى إن البنات يكبرن بسرعة .. ومحاسن قد كبرت فجأة لكنها تبتسم كلما تقابل وجهانا .. زجرها أبوها ..

– همة يا بنت ..

ثم انكفأ فوق كتابه الأصفر ..

شوح أبى بيده متوترًا ..

– أنت عارف شغلنا ..

ضحك التاجر بجفاف ..

– وأنت عارف الزمن ..

عبر محمد نونو الرصيف . وقف خلف أبى استعدادًا للمشاركة . أخذ الصنايعى الصغير يلقى نظرة متحفزة على الجميع .. وأصابع التاجر تزحف فوق قطع القماش فى نعومة كأنها ثعبان . أسرع الصنايعى العجوز . تناول أول قطعة وفردها بطول ذراعه . تألق لمعانها الخاطف وهو يهتف محبورًا .

– صلى على النبى .. عيب واحد على رقبتى ..

لكن التاجر ظل غير مهتم وفى عينيه نظرة باردة حادة .. فرغت محاسن من آخر زبون .. مالت على الحاجز ترقب ما يحدث . ابتسمت لها وأنا خائف . تلصصت العيون فى فضول مقيت . تذكرت فجأة الصنايعى الصغير وهو يغنى خلف النول بصوته الغريب ..

– آه .. قلبى على اليدوى .

راح الزمن على اليدوى ..

أبى حزين ولكنه صلب ولن يرضخ . نونو يوافقه تمامًا . أقعى الصنايعى الصغير فى الركن وهو يتأمل الجميع – حتى أنا – فى تحفز .. قالت محاسن ..

– أبوك زعلان ..

زعق أبوها .. لا يوجد زيت . منذ الأمس وأنا أقول لك . لا يوجد زيت ..

قالت طيب واعتدلت .. تكلم التاجر فى برود :

– بين البائع والشارى .

زعق أبى .. يفتح الله .. هه .. يفتح الله ..

لم يرضى أبى أن يكون لقمة سائغة .. انضم أكثر من معلم .. وقفوا خلفه فى صمت .. أخذت محاسن إناء الزيت الصفيحى .. قالت لأبيها .. سأذهب

للمخزن .. كنت أنا حزينًا من أجل أبى وأود الابتعاد .. قلت لها .. آتى معك . ؟ هزت رأسها بالرفض تراجع التاجر . تمهل قليلا لكن النظرات المتحفزة حاصرته . ابتعد ..

التفت أبى إليهم ..

– لم يكن ممكنًا القبول .. هه .. خراب مستعجل ..

انزلقت من فوق الرصيف .. ركضت عبر الشارع حتى أصبحت خلف محاسن .. كانت تسير متمهلة وهى تحمل الإناء المستطيل .

– محاسن .. وحشتينى ..

كان صوتها ساخرًا ..

– أنت فى سنة كام .. ؟ ..

هتفت فى حرارة .. رابعة يا محاسن .. رابعة ..

حملت عنها الإناء حتى وصلنا للمخزن . مجرد دكان واطئ فى منزل نصف مهدم . قالت وهى تضحك دون سبب ..

– متى ستكبر ..

ضحكت فى جفاف .. قلت وأنا أنفخ نفسى ..

– سأكون موظفًا كبيرًا .. هكذا يقول أبى ..

– آه من المدارس .. أبوك وجهه أسودّ .. كل المعلمين انتهوا ..

– وأبوك لن يكف عن السحر حتى يذهب بصره .

كنت غاضبًا حتى أننى فكرت فى إلقاء الإناء والإنصراف . سيبتسم الصنايعى العجوز ويدهش عندما أخبره أنها فتاة قليلة الأدب .. كانت أكبر منى بثلاثة شهور فقط .. فتحت باب المخزن .. هبت رائحة ثقيلة . خليط من الزيت

والصابون والعفونة .. قالت فى رقة مفاجئة ..

– لا تزعل .. أدخل .

تعودت عيناى على الظلمة .. شاهدت صفوف الصناديق المتراصة ، وأجولة المكرونة والحبوب ، وبراميل الزيت اللزجة الملمس . وضعت محاسن القمع ذا الطرف الطويل داخل البرميل وسألتنى فجأة .. هل أنت خائف .. ؟ نفيت ذلك بشدة . بدأت أحكى لها بصوت متعثر .. عن المدرسة . والأساتذة .. والسائل ينزلق فى أرضية الإناء بتراخ .. تتصاعد رائحته المميزة وعين محاسن تلمع .. قالت وهى تمسك يدى ..

– إسمع . فوق هذه الصناديق .. صندوق صغير من السكر النبات ..

قلت فى سرعة ذكرتنى بكتاب المطالعة .. أنا أحب السكر النبات ..

– سأحضر لك قليلا منه ..

صعدت .. حملقت مبهورًا فى ساقيها البيضاوين وسط ظلمة المخزن . هتفت . محاسن . تطلعت إلىَّ دون أن تتحرك .. أزاحت طرف الفستان قليلا . قالت .. حلوين . ثم ضحكت بطريقة غريبة .. خيل إلىَّ أنه من الجائز ألا تكون هذه محاسن .. قد تكون فتاة أخرى تشبهها .. أحسست بأنفاسها الحادة تحوط وجهى . لم تعطنى السكر كانت ملتصقة بى تمامًا . أخذ ت يدى وضعتها فوق صدرها وعاودت السؤال بنعومة .

– هل أنت خائف .. ؟ .. هه ..

سوف أعلمك لعبة جديدة ..

فى منتصف الأسفلت تجمع بعض تجار الدكاكين يرتدون ملابس ملونة .. ساروا صفًا طويلا أمام أبى صرخ أبى فىَّ . أين كنت يابن الكلب . ؟ ولما رآهم

وجم . توقفوا بين الرصيفين تحوطهم أعين المعلمين . انفجروا فى الضحك الصاخب الشامت .. زعق أحدهم ..

– بكم المتر يا معلم .. ؟ ..

رد آخر بنفس اللهجة . صوف ولا حرير ولا بفتة ..

تطلع أبى لنهاية الشارع . لم يعد ثمة أمل . اختفى التجار القدامى وبار الموسم ..

– ألف ندامة على الذى اشترى ولم يبع ..

محاسن دافئة والمخزن رطب .. طرف لسانها أحمر لامع . تأوهت وهى تضغط جسدى بشدة إلى أجولة المكرونة .. قالت ..

– أنا حلوة .. هه .. ؟

قلت لها مفزوعًا .. الزيت يا محاسن .. أسرعت ترفع القمع كانت بقعة كبيرة من الزيت تفترش الأرضية فى رخاوة والضوء يتسلل شحيحًا من شراعة الباب . واجهتنى محاسن مرة أخرى . كانت مصممة على ممارسة نفس اللعبة التى لم أكن أتقنها كثيرًا .. تناولت يدى هذه المرة ووضعتها داخل صدرها . أحسست به ساخنًا ناعمًا .. حاولت انتزاعها . لكنها أبقتها وهى تهتف .. قلبى .. آه قلبى .. أحسست بالفرح وأنا ألمس البروز الناعم .. قالت أمى .. إنهن يكبرن سريعًا ويصبحن أكثر ليونة .. ضغطت بشدة لكنها لدهشتى لم تتألم ..

كنت خائفًا على أبى .. وجهه ممتقع .. ورقبته بارزة العروق . زعق فىَّ . إجلس أمامى ولا تتحرك . وتجار الدكاكين يكونون دائرة صاخبة . أخرج أحدهم قائمة طويلة بأسماء الأقمشة والأسعار وأخذ يتلوها بصوت مسلوخ . تجمع

حولهم المارة .. تقلب الصنايعى الشاب فوق الرصيف . بصق العجوز فى إتجاههم . جذبه أبى للخلف . قال وهو يحاول الإفلات .

– أنا لهم يا معلم .. أنا لهم .

شعرت بالرغبة فى الضحك .. كان عجوزًا مهدمًا لا يتحمل لمسة ، وأبو محاسن يرفع حاجبه مستغربًا يصرف الزبائن فى حركة ضجرة .

محاسن تعض وجهى . أشعر ببهجة غامضة . قالت سأتزوج قريبًا .. تقدم واحد أفندى إلى أبى .. كنت أحس لعابها وأنفاسها وسخونتها المتزايدة .. أخرجت يدى من صدرها ولففت ذراعى حولها .. لم أدر .. ماذا أفعل بالضبط . ؟ كنت فزعًا .

تحسست قطع العظم البارزة المتتابعة فى ظهرها ..

تجمهر المعلمون حول أبى . زعق اللجهورى ..

–كان من الممكن أن ترضى بالسعر ولو مؤقتًا ..

قال أبى مذهولا من غبائه ..

– على رأسى ورأسكم ..

تقدم الصنايعى الشاب . بدا أنه على وشك الاشتباك فورًا .. قالوا فى أسف :

– مضى اليوم .. ولا شىء ..

صرخ محمد نونو كأنما اكتشف الحقيقة لتوه ..

– لابد إنه اتفاق بين كل التجار وبعثوا بمحجوب حتى يجس النبض .

كانت الفكرة معقولة ورهيبة . تراجعوا فزعين . أدركوا فجأة ضراوة الخدعة . تكاتف الجميع..المصنع القادم من الخارج . التجار الذين قضوا العمر

كله معهم ومع أبائهم تكاتفوا حتى يهبطوا باليدوى إلى الحضيض ..

– والكار .. والصنعة ..

زعق ابى يحسم الموقف .

– ابيع هدومى .. ولا أبيع بهذا السعر ..

فجأة . رفعت محاسن يدها تدفعنى بقوة فقدت توازنى . سقطت فوق أجولة المكرونة .. نهضت وهى تزعق يابن الكلب . ياعيل .. ياصغير . قلت وأنا على وشك البكاء . أهو أنت . بنت ستين .. تشبثت بشعرها . تأوهت . أخذت تضرب ضرباتٍ طائشة . كنت مغتاظًا جدًّا .. قالت .. غدا سأتزوج . وأريك شغلك . روح لأمك .. بدأت تخربش وجهى بأظافرها الحادة . حاولت أن أحمى نفسى . تحررت منى . وجهت لى ضربات سريعة حانقة .. أخذت أتراجع . أسقط وأنهض حتى أصبحت خارج المخزن . جلست جنب الجدار وأنا أرتعد لاحظ الصنايعى العجوز جروحى ولم يتكلم . حاولت إخفاءها عن أبى الغاضب . بدأ المعلمون يتجولون فوق الأرصفة كالحيوانات المحبوسة . أصبح الشارع خاليًا من الناس تقريبًا والمعلمون يزفرون . يرمقون بعضهم ولا أمل ومحاسن عائدة من المخزن تحمل الإناء المستطيل فوق رأسها .

أنزويت فى الجدار أكثر ..

فى منتصف الشارع .. ظهر التاجر محجوب .. لم يدر أحد كيف ظهر .. ؟ .

قال وهو يضحك نفس الضحكة الجافة .

– العقل زينة الرجال . موعدنا الثلاثاء القادم .

كان أبى صامتًا تمامًا . انسحب محجوب وهو مازال يضحك . أشار أبى للعجوز .. ضرب الصنايعى الشاب الجدار بقبضته .. نظرت محاسن إلى وجهى

المحمر . وجدتها تبحلق فيَّ بوقاحة وازدراء . أبوها منكفئ فوق الكتاب الأصفر سعيدًا متمتعًا .

لم الصنايعى قطع القماش .. حمل كل واحد من الصنايعية نصيبه . تأوه العجوز فى انكسار ورأيت وجه أبى يختلج كأنه ينزف نهضت . سرت بجانبه دون أن يلحظنى . كان جلبابه الصوفى الأسود يمتلئ أحيانًا بالهواء .. وتذكرت وجه أمى وهى تطويه وتضعه فى قاع الدولاب . وظل بقية المعلمين فوق الأرصفة يبحلقون فينا ببلاهة . ورأيت الشارع خاليًا .. طويلا . طويلا . وبيتنا بعيد .. والظهيرة برغم الشمس باردة لحد كبير ..

١٩٧١

رحلة المعلم منسي وولده محمد

١

فى أحد أيام شهر فبراير الكثيرة الريح . قرر المعلم منسى وولده الذهاب إلى بلدة منية شنتنا عياش – مركز المحلة .. إنقاذًا لما يمكن إنقاذه .

قطار « الفرنساوى » يواصل سيره الدءوب .. يتبدد صوت صفيره وسط الخلاء . حتى أن محمدًا تذكر تأوهات أبيه لحظة مرضه الأخير . فتحت الحقول صدرها ، وظلت بيوت المحلة تتضاءل وتغوص فى قاع الخضرة ، ومداخن المصنع الضخمة تطل من فوقها . ترصد المدينة وترصد الأب وكومة القماش بجانبه . تغزه فى شماته وتنعى هربه . ومحمد جالس أمامه يرقب حزنه فى خشية ..

زعق الكمسارى . اشتبك فى نقاش صاخب مع أحد الفلاحين ، لم يكن المقعد مريحًا وشعر بألم فى مؤخرته . ضرب فلاح – متغضن الوجه منفوش اللحية – كفًّا بكف وقال :

– حجز على الأرض . وإيمانات المسلمين خراب بيوت .

اختلج وجه الأب . دائمًا تلاحقه هذه الكلمة .. خراب . اهتزت العربة

كأن ألواحها على وشك الانفصال . وعندما تبدو الشمس للحظة من خلف الغيوم تتوهج الأقمشة الحريرية وسط عتمة العربة كأنها ابتسامة حلوة . لم يكف الكمسارى عن الحركة . لاحظ محمد عرجه الواضح . وبالرغم من زعيقه وشجاره المتواصل شعر محمد بالرثاء من أجله . اختفت المحلة نهائيًّا وأصبحت الخضرة قاتمة . أشار محمد نحو الكمسارى وقال هامسًا :

– هل يتألم .. ؟ ..

قال الأب بزهق ..

– يووه .. كل البلد تعرج ..

هبت موجة من الهواء خلال زجاج النافذة المكسور . ضم محمد ياقة قميصه . كانت أمه تخشى عليه من نزلات البرد . لكنه ظل يجلس الساعات الطويلة فى القاعة الرطبة يتأمل أنوال الأب الخشبية وأقدام « الصنايعية » صاعدة هابطة فوق « الدوس » ترسل الحركة لبقية أجزاء النول . كان لابد أن تظل القاعة رطبة حتى لا تجف خيطان الحرير وتتقصف بسهولة . لذا يصاب « الصنايعية » بنوع من الزكام الدائم صيفًا وشتاءً .

سأل الأب فجأة :

– هل سيكونون فى انتظارنا .. ؟ .

هز محمد رأسه مقطبًا حتى يقنعه بصدقه ..

– ما اسم أبوه .. ؟ ..

– عم جبريل ..

يوم الثلاثاء . يعود الفلاحون من سوق البندر أكثر حزنًا . فوق الأرفف ترمقهم السلال الفارغة .

والأوعية الفخارية فى حسرة . انفض السوق مثل كل مرة يوحى صباحه بالمكسب ولا تأتى نهايته إلا بالخسارة . أقفاص الجريد كانت مسكونة منذ ساعات قليلة بدواجن مزعورة منتوفة الريش . « قنية » الشهور الطويلة . وسوق البندر لا يشبع ويعود « الفرنساوى » يحمل فوق مقاعده المتكسرة أرقام الحسبة الخسارة . جنب الباب جلس فلاح شاحب بجانب زوجته . فاردة حجرها وهو يحصى فى عدة « برايز » قديمة رثة . يلقيها ثم يعاود التقاطها . هكذا طوال الطريق . غير مصدق أنه باع واشترى وعاد دون أن يفهم من صفقة البندر شيئًا . والأب يعرف من نظرات العيون حسرة كل ثلاثاء . يعرف شمس يومه الكاذبة وهى تضخم الظل . ثم يعود آخر اليوم وقد خدعه التجار ، وأكل حقه السماسرة .

تنهد الأب ..

– لم يعد هناك إنسان طيب ..

تمهل الكمسارى . وضع يده على صف القماش وهو يبتسم بمكر . تبادل مع الأب نظرات خاطفة وقال فجأة وهو يلوى عنقه :

– عيوب يا معلم .. ؟ ..

شوح الأب بيده غاضبًا ..

– يا جدع صلى على النبى ..

ضحك الكمسارى وأخذ يعرج مبتعدًا . ضم الأب القماش جنبه وتمتم منجوعًا ..

– آل عيوب .. آل ..

الفرنساوى يسير على حافة ترعة ضحلة . خشى محمد أى انزلاق مفاجئ ،

والمياه الراكدة مثقلة بالطين وجذور النباتات . صفعت عينيه جثة حمار منفوخ البطن فأشاح متقززا . تناول الأب أول مقطع من القماش . قربه من وجهه وهو يضغطه فى حنان . تأمل نقوشه الدقيقة وهى تضوى فى رقة كأنها المرة الأولى يا أبى ، كأن النقوش حروف كتابة . تحكى عن أيام « المسادى » ودق الدفوف ، وعرق الصنايعية البارد . وحوارى صندفا . حيث الطريق إلى البيت الممتلئ بالطين ، وعمال اليدوى والأطفال النحاف . وقف الكمسارى بعيدًا يرقب نزيف الأب الصامت . خفت ضجة الركاب ، وأصبح صرير العجلات كالأنفاس المحشرجة ..

قال الأب فجأة :

– تذكر يا محمد . غدًا سوف تكبر . لوراح اليدوى قل على الدنيا يارحمن يارحيم ، رفع الصنايعى الشاب يده بالمكوك وقال بصوت عال :

– شوف يامعلمى .. الله الله على الجد ..

الأب جالس فى ركن القاعة يعد لفات الخيط . يفردها على اتساع ذراعيه ليزيل ماعليها من النشا . بقية الصنايعية منكفئون على الأنوال . قال بهدوء :

– محمدى . اليدوى فى محنة .. رد الصنايعى بقوة :

– لا مؤخذة يامعلمى .. ولادى ولقمة عيش ..

وكان الرزق ضيقًا كمقطع القماش « الكنز » تناول المحمدى جلبابه وخرج من خلف النول ..

سوف أذهب للمصنع ..

تباطأت الأنوال التسعة حتى توقفت . رفع الصنايعية رقابهم النحيلة جداً . وأطراف أنوفهم الحمراء دائمًا . والكلمات الباترة تطن بين العوارض الخشبية . هكذا .. أوقف المصنع أول أنوال الأب .. ذات صباح .. اشترى الأب حفنة من السودانى . وضعها فى حجر محمد وابتسم . أشرقت الشمس بصفة شبه دائمة . سيكون يومًا طيبًا يا محمد .

قال الكمسارى : لا مؤاخذة يا معلم أحسن قماش والله . ابتسم الأب راضيًا الآن ينطلق كل معلمى المحلة الصغار . يحملون فوق أكتافهم كل أنواع الأقمشة اليدوية .. إلى بلاد الله الواسعة . يحاول كل منهم أن يبعد ظل الثلاثاء العقيم . يخرجون الأقمشة المكدسة من قاع الدواليب وتحت الأسرة . طويلة هى الأيام البوار . لكن هناك دائمًا زبائن جدد . وبلاد لا تقام فيها مصانع . وثلاثاء أكثر بهجة . وتمنى الأب ..

– لو ربنا يسهلها ! .

قال محمد بسرعة : تشترى لى بنطلون قصير ..

– يا سلام يا محمد ..

أصبح النول الواحد ثلاثة أنوال عاطلة . تهدلت خيطان الحرير وفر الصنايعية تحت إلحاح صفارة المصنع . اهتز القطار فجأة وأوشكت قطع القماش أن تسقط . تماسك الأب بحافة النافذة وارتمى محمد عليه .. سقط قفص ضخم من فوق الرف ، فأحدث مزيدًا من الرعب . أزّت العجلات وانبعث صريرها الحاد تحاول التوقف . ربت الأب على ظهر محمد بخيبة أمل وهو يقول :

– ياه .. عطلة تانى ..

توقف القطار وسط الخلاء كاليتيم .. قال الفلاح الأشعث :

– لا محطة ولا يحزنون .. حجزوا على « الفرنساوى » أيضًا ..

ارتفعت أصوات متبرمة تشتم الحكومة والسائق .. دخل الكمسارى منفعلا :

– احمدوا ربنا .. كنا سنذهب فى شربة ماء ..

فرد ذراعيه باتساعهما وهتف فى انتصار :

– حجر ضخم كان موضوعًا على القضيب .. رأيناه فى اللحظة الأخيرة ..

نظر الركاب لبعضهم البعض مرعوبين .. قال الأب .

– يا ساتر يارب ..

– السائق يزيحه الآن ..

كان محمد يعرف أن قطار « الفرنساوى » ينزلق حقًّا إذا وضعنا على قضيبه قطعة من الصابون عليها مليم أحمر . هكذا أخبره صالح زميله فى المدرسة . تساءل الأب :

– من فعل هذا .. ؟ لا يوجد سوى الخلاء ..

لمحها محمد أولا . حسب أنها مجرد خيال مآته قديم . لكنها ظلت تتحرك عبر غيط البرسيم قادمة تجاه القطار . أطلت الرؤوس من النوافذ . ظلت تتابعها دون أن تنبس بحرف حتى صعدت العربة . مجرد امرأة طويلة نحيلة سوداء . على يدها طفل ضئيل . اقترب الكمسارى منها مغتاظًا حتى ظنوا أنه سيضربها . أحاطت الطفل بذراعيها وواجهته بثبات . تراجع وهو يدمدم بكلمات غاضبة . لم تبال به . لم تبال بنظرات الارتياب من الجميع . سارت فى الطرقة الضيقة حتى جلست فى المكان الخالى جنب محمد . زام الأب وتطلع نحوها . سمعها محمد تردد فى خفوت ..

– حكم ..

تأمل وجهها . يشبه الصلصال فى حجرة الأشغال . جلد داكن مشدود . شفة سوداء . وعين واسعة . يدها طويلة الأصابع . تحتوى الطفل بكف واحدة . أزاحت اللفافات القذرة . ظهر رأس الطفل صغيرًا ومحتقنًا . كأنه مولود لتوه .

ظل الأب يحملق فيها حتى أخرجت ثديها فأشاح بعينيه للخارج . كان الثدى أقل سمرة .. مفلطحًا .. ممتلئًا بالنقط البنية . أمسكه الطفل بكلتا يديه ، وأخذ يمتصه فى شراهة . هبط سكون غريب على العربة .. ذابت النظرات الحادة ، وتعثرت كلمات السباب . توقف الكمسارى جنب الباب وتشاغل بالنظر للخارج . لم يتصور محمد أن الطفل بهذه الشراهة . ووجه الأم يشع بابتسامة ورضا غير محسوبين . قال الفلاح الأشعث بود حار .

– من أين يا شابة .. ؟ ..

قالت بصوت رقيق لم يتوقعه محمد وهى تضم الطفل :

– من بعيد ..

وسار القطار . قال الأب محاذرًا النظر إليها :

صالح وأبوه يعرفان ميعاد وصول القطار .. أليس كذلك .. ؟ ..

فكر محمد .. يأتى صالح فى هذا القطار . يحشر جسده وسط زحام الناس قال إنه ظل يتعالج من البلهارسيا لمدة أربعة عشر يوما . يأخذ كل يوم حقنة مؤلمة قبل أن يتناول إفطاره ، وفى النهار أعطوه ورقة صفراء تؤكد أنه شفى تمامًا . بعد ذلك عندما حاول التبول وجد الدم لا يزال ينزل . لم يتغيب عن المدرسة إلا قليلا . مريلته دائمًا متسخة ويزامل محمد فى نفس الدرج حتى أن مدرس العربى الضعيف البصر كان يخلط بينهما .. ثبتت المرأة بصرها فوق الأقمشة ، نفد

السودانى ، وشعر محمد بالعطش . توقف الطفل عن الرضع ، وظل بريق الحرير يجذب عين المرأة . خفتت أحاديث الفلاحين ، وأقعى الكمسارى جنب الباب بدون أرقام التذاكر ، وعين الأب شاردة للخارج . مدت المرأة يدها ووضعتها فوق أول مقطع من القماش . راقبها محمد مبهورًا . لم يتكلم أو ينبه أباه . زحفت أصابع المرأة فى نعومة تتحسس النقوش الدقيقة . اختلج وجهها وتوهجت الخيطان ، تراجعت الأنوال والبيوت الفقيرة إلى أقصى البلدة . جاء المحمدى يلبس عفريتة متسخة وطالب الأب ببقية الحساب . وأيام الثلاثاء تمضى تباعًا . ينصب السوق ويفض . تتراخى ضربات الأنوال ويكسو وجه الصنايعية مزيد من الشحوب والإرهاق . توقف الفلاحون حتى عن الهمس . فكر محمد . سأقول لأبى . يدها خشنة وسوف تجرح الحرير . ولن يفعل . نهض بضع من الفلاحين معهم الفلاح الأشعث حتى توقفوا حول الأب . أحس بحركتهم فالتفت . سحبت المرأة يدها بسرعة نظر إليها بضيق عادت تردد فى هدوء ..

– حكم ..

تحلق الفلاحون حول الأب . مد أحدهم يده وقال فى همس مبهور :

– الله على قماشك يا معلم .. ضحك الأب مختنقًا ..

– غالى .. غالى ولا يحتمل البهدلة . شفاههم مشققة . تحمل ظمأ غريبًا .

عاود الأب الضحك المتوتر وهو ينزل يد أحدهم .

قال الفلاح الأشعث :

– لبس العيد يا معلم ...

أحس الأب بالحصار . الكمسارى صامت ومحمد خائف . قال بجفاء :

– المقطع الواحد ثمنه جنيه ونصف .. تراخت أيديهم خيبة الأمل واضحة

عليهم . بحث الطفل عن الثدى فلم يجده . ارتفع صوته باكيًا . ضمته أمه وتمنى محمد لو أنه خارج الفرنساوى .

عاد الفلاحون إلى مقاعدهم . عاودوا البحلقة فى السلال الفارغة . وقطع السحب التى تبدو من خلال النافذة كالقرى المهجورة . وواصلت العجلات صريرها .

٢

.. فلما كان اليوم السابع . وصلت السفينة إلى أرض يابسة . وكان زبد الطوفان والطحالب مازالا عالقين بجواف الطين . تهادت السفينة ببطء وقد سكنت حدة الطوفان .. تقدم نبى الله « شيت » إلى المقدمة وتطلع فى شرود للخلاء الممتد . قال .. سوف أهبط فى هذا المكان . كان أصغر أبناء سيدنا نوح وأحبهم إلى قلبه . لذا وضع يده فوق كتفه فى حنان وقال .. هذا المكان لا شىء . لا اسم له ، وتسكنه قوم معروفون . لكن نبى الله « شيت » كان يختنق . حتى أن محبة أبيه أحاطته كالطوق . قال حازمًا . أشعر أن هذا مكانى . وسوف أهبط إليه . أنزل الأب يده وقد افتقد الود فى لهجة ابنه .

لم يكن قد تعدى ألف سنة من عمره بعد . لكنه شعر بالتعاسة وهو يشاهد أولاده فى تخليهم المستمر عنه .

ولم يأخذ نبى الله « شيت » شيئًا ترك كل ما على السفينة من حيوان ونبات وبشر حتى ولا امرأة . لم يجد شيئًا طيبًا لم ينهكه السفر . هبط . وسارت السفينة ، ومرت أيام .. وأيام .. وانقطعتُ أخبار سيدنا نوح .. وامتدت

اليابسة حتى غطت الأفق .

تشاغل محمد بكتاب المطالعة . أخذ يرقب أباه وهو ينصب « المزوية » الجديدة . الجد الأكبر مازال على قيد الحياة . يجلس كل غروب عند باب القاعة يوزع أجور الصنايعية كأنه الرب لحظة تقسيم الرزق . ومحمد يحلم بذلك اليوم عندما يكون له نول خاص .

الأب يفرد ذراعيه ويسرح الخيوط الحريرية بحد خشبى ناعم . هذا يوم مختلف المذاق . تكون الخيوط مشدودةكجسد البنت البكر . تشع وهجًا نضرًا . أمسك البخاخة وأخذ يرش عليها طبقة رقيقة من الصمغ المذاب فى الماء حتى يزيد من متانة الخيوط ، وعاد يسرحها من جديد . وهى ترسل صوتًا خفيضًا يسرى فى جو القاعة ، أشبه بالتنفس الناعس ، لحظتها يحس الأب بالتوحد مع النول .

يصبح هو اللحمة والسداة ورجفة المكوك وضربة الموسى فى آخر كل قماشة . والجد عند الباب يسب الصنايعية فيتلقون سبابه بالضحكات .. يا معلم قنديل نسيك الزمن والكار .. جلس الأب خلف النول ساكنًا . تتحرك شفتاه فقط . ترددان شيئًا خافتًا . أرخى محمد الكتاب وسأله ..

– ماذا تفعل ... ؟

– أقرأ الفاتحة ..

– لماذا ... ؟

– على روح سيدنا « شيت » .

وظل الاسم يتردد طويلا .. دون أن يفهم معناه ..

تتشابك أطراف المساء . من أول البلدة عند صندفا وقنطرة المدبح إلى نهايتها

فوق مئذنة مسجد التوبة ومقام سيدى المحجوب . تخفت ضجة الأنوال وتغدو كالوجيب . يقطع الصنايعية أطراف الأقمشة . وينام الجد قنديل على الدكة الخشبية فى فناء الدار مثله كل مساء ينتظر الموت . ذهب محمد إلى المدرسة . وبدأ الأب يضطلع بمهام الأنوال .. أصبح الصنايعية ينادونه بيا معلم عندما يتأكدون أن الجد لا يسمع . ويجلسون على المقاهى الضيقة فى شارع البوظ يثرثرون عن سيدنا الخضر لما مر بالمحلة وشاهد الذين يغشون الحرير . بدأ واضحًا أن الموت يخشى زيارة الجد ، وأعاد محمد السؤال مصرًّا .

– من هو سيدنا « شيت » ؟ .

لم يكن الأب يعرف الكثير . لكن الجد كان يعرف الكثير عن الله وعن أنبيائه . ظل ينام على الدكه كل مساء .. ويحكى لمحمد حتى وجد الموت فى نفسه الجرأة وغافله ذات منتصف ليل .. هكذا سار نبى الله « شيت » غريبًا . حتى أتى أرضًا كلها عراء . لم يكن له كتاب ولا معجزة . ولم يكن مجديًّا أن يحدثهم عن شيء . لذا أمسك الخشب وصنع أول نول من ألياف النخل . ضحك محمد مندهشًا ..

– ألياف النخل ... ؟

أمسك الجد ليفة حمراء وأزاح قشرتها ثم أشار للداخل ..

– أنظر هذه الخيوط المتقاطعة طولا وعرضًا .. هكذا صنع سيدنا « شيت » أول أنوال اليدوى ..

حلم محمد بسيدنا شيت يسير على حافة الترعة الواسعة التى تعبر المحلة نحيفًا ، شاحب الوجه ، وطرف أنفه محمر يخب فى جلبابه « السكروته » مثل بقية الصنايعية . وعندما ينزل النول تبدو قدمه المفلطحة وساقه الضامرة المشدودة

العضلات . مثلهم تمامًا . ومات الجد فى منتصف ليل الجمعة وكان وجهه يحمل ملامح سيدنا الخضر وسيدنا شيت .. وفى المدرسة أهمل مدرس الدين قصة النبى الغريب . سأله محمد بإصرار فأنكر الأستاذ وقال إن أنبياء الله معروفون كالشمس . وليس بينهم مثل هذا النبى لكنّ محمدًا ظل موقنًا من وجوده . من أنه مازال يعيش . يسير بين الصنايعية الفقراء ويعطس من برودة القاعات ، ويحمل كل غروب قماشته عبر دروب "صندفا" الضيقة . وعند عودة محمد من المدرسة تزدحم الطرقات بالنسوة أمام الدواليب . والأولاد يكرون بكر الخيط . والأطفال ينتقلون بسلال « المواسير » يعطون كل صنايعى حصته . وتعلو غناءات خافته ، مزيج من الصبر وانتظار الفرج . وفى نهاية كل يوم يرقبون بلهفة نتيجة الميزان . لحظتها يسمع محمد نبراته وهو يلح فى طلب أجرة عرقه كاملة .. ولنؤجل الخصم يا معلم حتى الثلاثاء .. نؤجله يا معلم ..

.. كأن اليدوى كان حلمًا .. هكذا . بعد أكثر من ثلاثاء مؤجل . عاد الأب والصنايعية وبقية معلمى اليدوى من سوق المدينة حاملين أقمشتهم بأكملها . لم يبع أى منهم قطعة واحدة . انتهى الزمن الحلو على حين غفلة . وانتصبت مداخن المصنع شرق البلدة كالوعد . بالمصادفة ذهب مع أبيه . لأن هذا الثلاثاء وافق عطلة فى المدرسة . عز الشتاء والوحل يمتد بعرض الطرقات ، وأقدام الصنايعية وزبائن الفرجة تخوض فيه دون أن يظهر أى من التجار . عادوا دون أن يتبادلوا كلمة أو يستطيعوا النظر لبعضهم . هذه اللحظة أيقن محمد أن سيدنا « شيت » قد مات .. وأنهم كلهم يسيرون فى جنازته .. انهار الأب فوق أحد المقاعد .. وقرر : خدعنا التجار ..

لكن التجار هجموا فرادى فى غير يوم السوق . فى قاعة كل معلم على حدة .

عرضوا أثمانًا بخسة كأنها التراب . وظل الوهن يصيب الدقات والأقمشة تتكدس . تعطلت خمسة أنوال جديدة . وعندما زادت حدة الشتاء . سقط الأب مريضًا . سهرت الأم تغير القطع المبللة فوق جبينه . وبدأ يهرف . يتكلم عن محمد . عن صفارة المصنع التى تشق بطن البلدة ولحظة نزول الجد إلى قبره . والتجار يتبادلون الضغط على عنقه . وبكى محمد وبينما هو عائد من المدرسة قابله المحمدى . نظر إليه محمد مغتاظًا . شاهد عفريتة المصنع الزرقاء المتسخة .

كان بينهما ود قديم . طالما حمله وهو صغير واشترى له قطع الكراملة . جلس المحمدى أمامه نصف جلسة وقال معتذرًا :

– غدًا سوف تكبر .. وتفهم يا محمد .. لم يكن هناك مفر من المصنع ..

أفاق الأب وبدا ذابلا مهزومًا . عاد للقاعة دون نفس حتى لقراءة « المصرى » جريدته المفضلة . تأمل قطع الأقمشة وقال :

– نبيع القماش أكفان والله .. يتكفن الأموات فى « الألاجة » و « السكروتة » وعليه العوض فى الدنيا ..

جاء المعلمون من صندفا والوراقة وسوق اللبن . جاءوا من الأحياء الواطئة خلف تل الواقعة والتربيعة والتفوا حول الأب فى القاعة الرطبة . كان المرض قد أصابهم جميعًا فى نفس الوقت . قرأ محمد الفاتحة على روح جده ووضع فى طاقة قبره قطعة من الصبار . لم تخرج الأم برحمة ونور لضيق ذات اليد . اكتسب الأب حيوية مفاجئة عندما شاهد الوجوه تتطلع نحوه آملة ..

– التجار يحاصروننا .. يريدون لنا الخراب .. أليس كذلك .. ؟ ..

وضع كوب الشاى الفارغ وأعلن ..

– سوف نوزع قماشنا بأنفسنا .. رفع المعلمون رءوسهم فى دهشة . حقًا . لم

لا ؟ .. انتفضت الأنوال فى شهقة ما قبل الموت ، بدا أن هناك فرصة أخرى تزهو فيها خيطان الحرير ، هناك فاتحة أخرى ومزيد من الرحلات فى انتظار سيدنا « شيت » .

– نهبط بلاد الفلاحين حول المحلة . نذهب حتى للصعيد .. المحلة سمعتها كالبرلنتى . انصرف المعلمون وعيونهم تبرق . واقترح محمد أن يذهبا إلى بلدة صالح زميله فى المدرسة . أخرجت الأم الجلباب الصوفى من قاع الدولاب وأخذت تنظفه . واصل الأب القول . سوف يكون الثلاثاء من صنعنا فى أى يوم . وأى بلد . وظلت فلول المعلمين تجتمع فى حذر . تقرر وتناقش وتدبر خطط رحيلها السرى . والمداخن تطل عليهم بغيظ مكتوم . حتى إن اليدوى عاد يدوى بشىء من القوة القديمة .

٣

تسكن الريح أحيانًا . يتعثر الحمار فوق التراب الناعم كأنما يخشى أن يغوص بحمولته ، الأقمشة معتمة ، ووجه الأب مكفهر ، وكل شىء منحنٍ إلى أسفل . ظهر عم جبريل وهو يسعل وبيوت القرية الطينية والريح جعلت محمدًا لا يرى صالحًا بوضوح . أشار عم جبريل للدوامات الهوائية الصفراء ..

– والله يا معلم منسى .. مثل ريح « برقه » تأخذ فى طريقها كل شىء .

امتلأت عين محمد بالتراب . همس صالح ..

– أبى كلم العمدة بالأمس .. وسيشترى قماشًا من أبيك ..

سر محمد رغم أنه لم يصدق أى احتمال لمقدرة عم جبريل . كان عجوزًا

مضعضعًا حتى إن وجهه يظل دائمًا متجهًا للأرض . توقف الحمار وأخذ ينهق بصوت كالبكاء .

قال عم جبريل ..

– أنت ضيفى .. أقله لقمة صغيرة ..

استقبلتهم سمية أخت صالح بابتسامة طيبة . لم يكن الأب راغبًا فى الأكل .

جلسوا على الحصيرة وأمامهم عدة أطباق بسيطة .

– على ما قسم .. شىء لا يليق بالمقام ..

مال صالح على محمد وقال ..

– سوف نذهب .نلعب فى الجرن ..

– كلا .. سوف أبقى مع أبى .. تأمل العم جبريل مقطعًا من القماش قال فى انبهار حقيقى .

– والله يا معلم منسى .. يا سلام على الزمن ..

فكر محمد . لو أنها لى لأعطيتها له دون مقابل . سعل الأب فى حرج .

واصل عم جبريل القول ببساطة .

– قماش ناعم وغالى .. لا يليق إلا بالأكابر .

حاول الأب أن يجامله .. قال إنه الخير والبركة . لكن عم جبريل حسم القول ..

– لعل العمدة قد عاد الآن من الصلاة ..

ازدرد الأب لقيمات صغيرة . فى الصباح لم يتناول فطوره قال للأم إن معدته ممتلئة بالغازات . خاف محمد أن يطلب منه أبوه البقاء مع صالح ويذهب وحده . نهض متعجلا وهو ينفض ثيابه باهتمام . قال الأب :

– يا محمد ..

لم يدعه يكمل . قال فى لهجة مهددة بالبكاء ..

– أريد أن أذهب معك ..

وساروا . أَلِفَ الحمار حمولته بعض الشىء . وازداد ظهر عم جبريل انحناءً أخذت ريح « برقه » تزوم وتخفى كل شىء ..

– والله يا معلم منسى . لم تترك الشدة أحدًا على حاله . كل يوم تزداد الحالة الضنك لا لقمة هنية ولا هدمة نظيفة .. حتى نقود المدرسة لا ندبرها إلا بصعوبة . فى البداية عندما جلس صالح جنب محمد ادعى أن أباه أغنى أغنياء قريته . صدقه حتى إنه لم يتأمل مريلته المتسخة ولا الحقيبة المتآكلة لذا تبادلا نظرات خجلة . وحزت فيهما الكلمات الشاكية معًا . وأصبحت البلدة ممرًا خانقًا تحاصره البيوت ، وتطل فوق سماء مصفرة شعثاء . تباطأت خطوات الحمار ، وألقى الرجال العابرون سلامًا خاطفًا وهم ينظرون للأقمشة فى ارتياب . بدا صالح على وشك البكاء ، انتهت الطرقة ، وأصبحوا فى مواجهة بيت العمدة الضخم . قال صالح :

– أريد الانصراف .. لن آتى معكم .. استغرب محمد وشعر بالخوف ، تأمل الغفير الواقف عند الباب وهو يحمل بندقية تقاربه طولا . قال عم جبريل بصوت خافت ممتلئ بالرجاء ..

– معلم المحلة يريد العمدة ..

لم يبدُ عليه أى ود . أشار نحو الباب وهو يتطلع للأقمشة كأنما يوشك أن يخطفها . حمل الأب الأقمشة وانزوى الحمار فى أحد الأركان . ثنى ساقية وسكن خائرًا . التفت محمد فلم يجد صالحًا . دار برأسه فى كل اتجاه لكنه اختفى . دخلا

من الباب وهو يمسك بذيل جلباب أبيه . زامت أربعة أو خمسة كلاب كانت مربوطة مقعية جنب الجدران . حدقت فيهم بعيونها الصغيرة اللامعة . بدت ألسنتها طويلة متدلية على جانب الفم ، ينسال من خلفها خيط رقيق من اللعاب . كانت المرة الأولى التى يرى فيها محمد كلابًا سمينة لهذه الدرجة . أحس الأب كأن هناك فخًّا ما .. حتى عم جبريل شعر بالخوف .. فتح أحد الغفر بابًا آخر يقود لجلسة العمدة . فوجئ محمد بأنه يجلس تمامًا فى مواجهتهم فوق مكان مرتفع ، أما باقى من فى الحجرة فيجلسون فى مستوى أقل . قال عم جبريل كأنه يتوسل ..

– سلام يا عمدة ..

د العمدة بإشارة موجزة بيده التى تحمل مسبحة صفراء ..

جلس الجميع . بدا العمدة طيبًا . نحيلا بعض الشىء . ذا لحية كثة . وفوق رأسه عمامة نظيفة . فى بقية الغرفة تناثر الأعيان . ظل الأب يمحص الجميع . كان للسوق فى داخله إيقاع خاص سواء فى الشارع أم فى الحجرة الضيقة . لذا ظل مرتابًا . ابتسم العمدة – آنست وشرفت ..

رد الأب التحية وهو يفرك يديه .

ظل الأعيان متجهمين ، يتطلعون نحو العم جبريل بنظرة حانقة . تقدم أحد الغفر وهو يحمل كوبًا واحدًا من الشاى وضعه أمام الأب واستدار عائدًا . نظر الأب حوله فى حيرة . عاود العمدة الحديث .

– يا آهلا بناس البندر ..

بدا عم جبريل كالفأر المحبوس . خلع طاقيته المتسخة وأخذ يمسح عرقه فازداد وجهه اتساخًا ولم تتراخ نظرات الأعيان المتوترة . لعلهم كانوا يتساءلون

كيف تسنى له أن يمر من البوابة وعبر الكلاب والباب الضيق ..

أدرك الأب بغريزته أنه لا بيع ولا شراء مادام هذا الجبريل موجودًا . نهض عم جبريل فجأة وقال فى خجل :

– لا مؤاخذة .. ميعاد الصلا .. سأكون فى انتظارك يا معلم منسى .. هه ميعاد الصلا ..

أحس محمد بالخوف الزائد وعم جبريل يتركهم ، لكنه دهش عندما شاهد علامات الارتياح فوق وجه الأب .. تنهد الجميع فى صوت واحد كأنما كان يجلس فوق صدورهم . قال رجل أحول .. عرف محمد فيما بعد أنه شيخ البلد :

– أووف .. ناس تخاف ولا تستحى . أدرك محمد لماذا اختفى صالح ؟ ..

قال العمدة :

– هيه يا معلم .. دعنا نرى بضاعتك ..

كره محمد لهجته الناعمة . كأنما هى حد السكين . اكتشف أن الأعيان يحيطون بها معًا . أنزل الأب كوب الشاى متمهلا . سبقته أكثر من يد تتحسس القماش . تجذبه دون رقة . ضحك . حاول أن يعيد النظام . كان الأعيان يلهثون . سمع محمد دمدمات أنفاسهم . ياسلام يا معلم . والله يا سيدى . أضاف العمدة فى خبث . لكن أى ريح ألقتك علينا ؟ . أحرج الأب لكنه قال : كان التجار دائمًا يقفون بيننا .. اندلق كوب الشاى .أسرع بإبعاده . جذب شيخ البلد مقطعًا طويلا .. لحقه الأب بصعوبة .. تثاقلت أنفاسهم . قل إن الكار أصبح فى الحضيض . زعق الأب كلا . كان شيخ الغفر غاية فى البلادة . شاربه مهدل . لا يلمس القماش لكنه يتطلع فى ريبة . شعر محمد أن جو الغرفة أصبح أكثر عتمة . ودَّ لو يستطيع الهرب إلى أى مكان .. أن يجلس مع صالح وعم

جبريل . عاودت الريح صريرها فى الخارج . قال العمدة يا سلام على الخماسين كأنها كرابيج .

قال الأب أخيرًا . أنتم تفسدون الترتيب ما هكذا تكون الفرجة ؟ ..

ودَّ لو يقول لم أكن أظن أصابعكم بهذا الطول . انتزع شيخ البلد الأحول مقطع « سكروته » مشغولا بخيوط حريرية حمراء . قال بصوت حاد : بكم ؟ . ذكر الأب الثمن فى إيجاز ملمحًا أنه لا فصال . ألقى المقطع وهو يزوم غير راضٍ . ثم عاد وتناوله وهو يضحك ضحكة صفراء .. يا معلم نحن نعرف البير وغطاه . وفكر الأب . هل يظنوننى أتسول ؟ .. أصبح صوت العمدة كصرير العجلات الصدئة . قال تهاون يا معلم منسى . نحن نريد أن نشترى ونساعدك . هتف الأب . سعيكم مشكور ، وحاول ترتيب المقاطع . كان أحد الأعيان سمينًا لدرجة كبيرة . أضخم من ثلاثة مجتمعين .. لف أحد المقاطع حول وسطه فبدا لامعًا متألقًا .. انفجر فى ضحك صاخب حتى إن العمدة لم يملك إلا أن يتجاوب معه . قال شيخ الغفر بنفس الريبة . لكن لماذا جئت مع الفلاح جبريل ؟ .. أشار الأب نحو محمد وحاول أن يشرح .. لكن الآخر استدار وتشاغل بالنظر إلى آية قرآنية على الجدار . فكر حانقًا يلعن أبوكم .. لكنه ابتسم وحاول أخذ المقطع من العين السمين لكنه تشبث به وهو يد مدم . عاود العمدة همسه الشبيه بالصرير . هل هو قماش متين .. ؟ .. يخيل لى أنه قماش المصنع .. هه .. تذكر محمد المداخن وهى ترصدهما فى شماته ، والأم تدعو وتنظف الجلباب . وسيدنا « شيت » لحظة الاحتضار . تحولت الأقمشة الجميلة إلى مقاطع مفكوكة . مفرودة فى أنحاء الغرفة والأعيان يجوسون خلالها كالحيوانات المفلوتة . قال الأب يرد الفصال .. والله لا أقدر . هذا لا يساوى ثمن الخيوط . ضحك

العمدة والله أنت راجل طيب . علت الكلاب فجأة فى موجة من النباح السعران . وفكر الأب . حتى الكلاب يشاركون فى الفصال . وعاد شيخ الغفر يلح . هذا القماش لك وحدك ؟ أمسك الأب طرف أحد المقاطع وشعر بالخوف ضمه إلى صدره وبادله نظرة ثابتة .

قال العمدة : المعلم ضيفنا يا أبا إسماعيل . سمع الأب صوت تمزق فالتفت بسرعة . كان شيخ البلد يتأمل أحد المقاطع هادئًا فوق العادة . وبقية الأعيان يدعكون الأقمشة بين أصابعهم فى قسوة .

احتار الأب . ماذا يريدون بالضبط ؟ .. قال العمدة : سوف نشترى الكثير . يجب أن تتهاون فى السعر . قال الأب : والله على عينى . الزمن لا يرحم . بدأ العين السمين يصفق فى مرح .. قال العمدة بخفوت : لو اشتراها فسوف يرميها فى الزريبة . عاود شيخ البلد الإلحاح وهو يمسك نفس المقطع ذا الخطوط الحمراء . سأشترى هذا ما قولك ؟ ..

ذكر الأب نفس السعر فألقى المقطع . ابتسم الأب . يا شيخ البلد أنت قدها وقدود .. لكنه تظاهر بالغضب وكان الثمن بخسًا .. بخسًا .. لا يساوى تعب النهار ولا برودة الموسم . ولا انكفاء الصنايعية ولهفة كل غروب . بخسًا لا يساوى هذا الإنهاك وتلك الإهانات الخفية . انتصب شيخ الغفر واقفًا فى منتصف الحجرة ..

– الهوانم يردن الفرجة ..

تنهد الأب أخيرًا ، لن يحسم أمور البيع والفصال سوى النساء . ونساء العمدة مثل كل نساء الدنيا عقولهم فارغة . أخذ يعيد ترتيب الأقمشة . جذب كل مقطع من جهة مختلفة وأعاد طيه . تشبث العين السمين بما عليه هبط سكون

غريب على كل من فى الغرفة . حتى العمدة أخذ يعبث فى حبات مسبحته محاذرًا أن يسمعه أحد بلا استئذان . أقبل شيخ وانتزع الأقمشة ن أمام الأب ومن بين يديه ، واختفى خلف باب الحجرة . وظل الأب يتطلع فى إثره قلقًا . قال محمد بصوت خافت جدًّا ..

– أنا خائف ..

لكنهم سمعوه . انطلقوا فجأة فى الكلام . صوب العمدة نظرة قاسية إليه ، حاول العين السمين الرقص وهو يزيد من لف المقطع حول وسطه . لكن العمدة صرخ فيه حازمًا ..

– أجلس وكفى مسخرة ..

جلس وقد تقلصت ملامحه كأنه على وشك البكاء . ورغمًا عن التحايا الجافة بدا الأب قلقًا . يرمق الباب بنظرات خفية .

تعالت ضجة أنثوية خافتة خفية . طغت عليها ثرثرات الأعيان . ترك شيخ البلد يده وهتف بالأب .

– هيه .. قلت بكم .. ؟ ..

ولم يرد عليه الأب . لو تكلم فسوف ينفجر فى وجهه . زعق شيخ البلد ..

– يعنى قماش انجليزى يا خى .. وازورّ غاضبًا ..

وأخيرًا دخل شيخ الغفر يحمل الأقمشة بين يديه ككتلة مهوشة بلا شكل . ألقاها أمام الأب بلا مبالاة ثم رفصها حتى يقربها وقال فى إيجاز :

– أخذوا مقطعًا ..

برطم العمدة وهو يضغط حبات المسبحة . وقال محمد :

– ننصرف يا أبى ..

رأى أصابع الأب ترتعش وهى تلملم القماش كأن الثنيات والخيوط المنسولة جروح صغيرة تنزف . بدا من المستحيل ترتيبها . لكنه واصل الطىّ بلا وعى حتى يحملها وينصرف . تنهد العمدة كمن غلب على أمره .

– قطعتان يا معلم .. على خيرة الله ..

أخرج النقود بتلكؤ . أخذها الأب دون أن يحصيها . حمل أقمشته بسرعة ، أمسك محمد بذيل جلبابه . الطرقة خانقة . الكلاب تزوم فى حرقة . الغفر ينظرون فى ريبة جائعة . والخماسين كالسياط .. تتمدد العتمة وتطبق . وجلبة الأعيان تختلط مع لهاث الكلاب ، ووجه عم جبريل مكلوم . بالغ الانكسار الحمار ينهض متأففًا كسولا .. وفكر محمد . أبى مريض لكن ليته لا يتأوه وتكلم عم جبريل ليعتذر .. ويشكو .. وكأنه يقودهم فى عكس الإتجاه الصحيح وظل صدر الأب مطبقًا . مرة أخرى نسير فى جنازة النبى الغريب .. مرة أخرى يا محمد . وبدا ضوء المحطة واهنًا يوشك أن ينطفئ . قال الأب محاولا إرضاء عم جبريل ..

– أنت فعلت ما عليك وأكثر .. وأصر أن يبيتوا عنده ، لكن الأب شد على يده ممتنًا .. ومن وسط الظلام برزت المرأة النحيلة . تذكرها محمد بسرعة برغم خوفه . ظل الأب وجبريل يحدقان غير فاهمين . وقفت المرأة فى مواجهة الأب ، قالت فى لهجة غريبة ما بين التوسل والأمر .

– بع لى مقطعًا يا معلم ..

نظر إليها بتمعن وأوشك أن ينفجر ضاحكًا من الغيظ . لكن المرأة رفعت الطفل الضئيل القذر بين يديها وقالت ..

– أريد مقطعًا له .. يلبسه ويصبح سيد الناس ..

ضمته لصدرها .. ثم مدت قبضتها اليمنى وفردتها أمام الأب . لم يكن بها سوى ورقتين ماليتين لا تشتريان بكرة خيط وقالت بثقة ..

– معى نقود يامعلم ..

هز الأب رأسه . ربت عم جبريل على كتفها وتعالت صفارة القطار .

قال الأب فى حسم ..

– بنا يا محمد ..

تصافح الرجلان بسرعة . ولبثت المرأة غير فاهمة لماذا لا يريد إتمام الصفقة . وبدت العربة موحشة خالية من الركاب . شعر محمد بالبرد ينفذ إليه من كل مكان . استكان فى مقعده ولم يعد ظاهرًا من البلدة سوى كتلة من الظلام . وسرت العجلات من جديد ، وظل محمد يغرق فى الظلمة . تتقارب أعضاؤه بحثًا عن مزيد من الدفء .. رأى محمد الولد الضئيل ابن المرأة السوداء وقد كبرت ساقاه ، رآه يتقافز فوق مقطع من القماش الحريرى اللامع مفروش بطول درب القرية . رأى المدرس يلوح بالعصا مهددًا . والعمدة يأكل حمار العم جبريل ، والعين السمين يرقص فى شارع السوق الرئيسى ، وأبوه يلبس جلبابه الصوفى ويسير وسط رهط المعلمين .

ورأى الحمار يخرج من فم العمدة ويتحول إلى حصان أزرق يقطع المسافة مابين المحلة فى غمضة عين .

استيقظ مفزوعًا والأب يهزه ..

– محمد .. محمد .. استيقظ ..

رأى وجه الأب محتقنًا غاضبًا . استطاع أن يسمع كلماته المختنقه بصعوبة ..

– القماش ناقص فى العدد .

١٩٧٣

سوف نعيد ترتيب كل شيء

الساعة الخامسة ولم تحن لحظة العبور .. فكر جندى مؤهلات « أحمد الحوتى » حتى هذا المعبر البعيد يبدو كالحلم . مرقت طائرة وسط السماء كنصل سكين ، وظلت الأرض ترتجف ، إذ تسرى فيها نبضات الدوى البعيد . وكلمات البيان السادس تدوى .. يحاربون هناك .. ولا أحد يحلم ..

ضغط فوزى – الجندى السائق – فوق نفير السيارة .. قال أحمد متوترًا :

– لم يحن دورنا بعد ..

قال فوزى لاهثًا :

– لا أصدق أننى سوف أعبر ..

ومن الذى يصدق ؟ الموت القريب لا يترك برهة للخوف . الدبابات تدمدم فوق أخشاب المعبر . تستدير ثم تختفى خلف تلال الضفة الأخرى . فكر أحمد . سوف أكتب خطابًا لأخى الصغير . أكتب لك من مواقعنا الجديدة داخل سيناء . تأمل خريطة مصر فى المدرسة . وسوف أكون نقطة صغيرة على الضفة الأخرى طمئِن أمى وقبّل يدها . قال :

– بعد الدبابات سوف تعبر المدفعية الثقيلة . وسنكون نحن فى المقدمة . قال فوزى : وسوف نعود أحياء أليس كذلك .. ؟ ..

بوغت أحمد بالسؤال . رأى وجه فوزى يختلج . مدهوشًا وخائفًا ، تذكر وجه بائع الجرائد ذا الساق الخشبية . دائمًا يقابله فى كوبرى الليمون كل إجازة ويسأله فى إلحاح ..

.. ما أخبار الحرب يا دفعة .. ؟ ..

سارت العربة فجأة . سيارة القائد فى المقدمة . اقترب الجسر . مثل ذراعين بالغى الطول يضمّان ضفتى القناة . سمع أحمد دقات قلبه واضحة . لست خائفًا ولا سعيدًا . كانت مياه القناة ـ من فعل البارود – شريطًا أسود طويلا . يجمع كل الوجوه التى عرفها . تعالت أصوات الجنود عبر زمجرات « الموتورات » كانو يغنون معًا فى حرارة ..

– يا عزيز عينى .. وياما نفسى أروح بلدى ..

« منيه عياش » . كتلة الطمى والخضرة التى تنتظر بلا كلل . رشيدة .. يا أختى الصغيرة . كيف يمكن أن تضاء مصابيح الزفاف والطائرات ترصدنا . تبدو القناة ساجية كوجه النهر إذ يعبر القرية .. ثم تضطرم المياه ويظهر جوفها المعبأ بحطام القنابل . يا عزيز عينى . أيام الحرب حارّة . والأحلام مخنوقة ..

توقفت العربة . رفع جندى الشرطة العسكرية ذراعه يوقف بقية « القول » . بدأت أصوات المدفعية المضادة للطائرات تتتابع . اقترب الجندى وفى فمه سيجارة غير مشتعلة . قال :

– خامس غارة على الجسر . ألقوا عليه من القنابل ما يكفى لتدمير عدة بلاد . أعطاه أحمد علبة الكبريت وتساءل .. هل أصابوه ؟ ..

– مرة واحدة وأصلحناه خلال نصف ساعة ..

امتلأت السماء ببقع الدخان . ظهرت أربع طائرات تشق طريقها عبر كتل

النار . تساءل أحمد فى قلق .

– ألا يجب أن نختبئ .. ؟ ..

– لم يعد هناك معنى للخوف . سوف يبقى هذا الجسر للأبد ..

جذب نفسًا عميقًا وومضت عيناه . تقلصت مياه القناة وساد الوهج . فكر أحمد . سوف أحدث بائع الجرائد عن هذه اللحظة . ذات مرة زعق فيه أحمد غاضبًا . لم تكن الهزيمة جريمتى . ظل يركض خلفه بقدمه الواحدة وهو يهتف ..

– لا تغضب يا دفعة . أنظر إلى ساق .. ٦٧ والله يا دفعة ..

دوى انفجار وتصاعد عمود عال من المياه . هبطت إحدى الطائرات وعاودت الارتفاع ، رأى أحمد بوضوح الدخان وهو ينساب من الذيل مكونًا خطًّا طويلا بعرض السماء . هتف فوزى فى نشوة ..

– لقد أصابوها ..

إنهم يفرون . ازداد وميض عين الجندى . انزاح الهواء الأسود قليلا ، ورأى الكوبرى سليمًا . رفع الجندى ذراعه وبدأ يشير للجميع . قال أحمد :

– مع السلامة يا دفعة . ألم أقل لك .. سوف يبقى الجسر للأبد ..

عادت العربة تشق ذرات الهواء الساخن . المياه تضطرم والمدفعية متقطعة تطلق آخر طلقات التأمين .. زامت الموتورات وتمنى لو يعود الجنود للغناء . لو يجلس بينهم ليرددوا معًا كل الأغانى المصرية العذبة .. لكنه وحده فى هذا « الجب » الموحش . خلفه أجهزة قياس الضرب ومؤشرات الضبط مكومة . والجسر يكبر حتى يملأ الأفق . استدار فوزى بالعربة ، وشعر أحمد بها وهى ترتج فوق أخشاب الجسر ، تصدر صوتًا أشبة بالشهيق كأنه يستيقظ . وقديمًا ظن أن هذا الساتر الرملى لا يخفى أحدًا . وأن الانتظار خدعة أخرى . كان الجسر عريضًا

ذا إتجاه مزدوج ، وعندما وصلت بقية السيارات ، إلى أوله . سمع أحمد ضجيجًا ينزع إحساسه المؤقت بالوحدة . تذكر جدته . كانت تحكى له عن سيف بن ذى يزن . كيف سافر إلى منابع النيل ودفن كتاب الحكمة تحت أعمدته ، من يومها والنيل يتدفق على أرض مصر . هكذا انزرع الجسر . وهكذا سوف يتدفق الجنود . أخرج أحمد عدة قروش وقذفها فى الماء بأقصى ما يستطيع . قال فوزى فى دهشة .

– ما هذا ..

– قربانًا للحظ الحسن .. حتى نعود ..

قال فوزى بلهفة أعطنى أنا أيضًا قرشًا . وقذف به فى نشوة . ومرة أخرى أوقف جندى الشرطة العسكرية السيارة وهو يأمرهما أن يأخذا جانبًا من الجسر ، لأن هناك سيارة أخرى قادمة من الإتجاه المضاد . تطلع أحمد ليرى ما يعوقهم . شاهد سيارة جيب قادمة تسير ببطء غريب ، هدأت الضجة وبدت كأنها تسبح وسط الضباب . علا الوجوم وجه الشرطى . تساءل فوزى ببلاهة .

لماذا يعود .. ؟ ..

بدا أن السيارة لا تحمل سوى السائق ، فجأة أدرك أحمد كل شىء . نظر للمياه كأنه خُدع . تذكر وجه أبيه قبل الرحيل . واستعداد رشيدة للزفاف . وإلحاح أمه عليه أن يتزوج قبل أن .. قبل أن .. حتى فوزى أدرك الأمر .. وجه السائق معفر بالسواد ، ألقى عليهم نظرة جامدة ، وواصل سيره البطئ القاسى . نظر أحمد للجثة . المرة الأولى التى يرى فيها ميتًا – عندما مات أبوه لم يشاهد سوى الكفن الأبيض وهو ينزلق بين أيدى الرجال – لعلها المرة الأولى التى يدرك فيها أن الحرب لا تترك خلفها سوى الدانات الفارغة والمزيد من جثث القتلى .

كانت سترته مخلوعة . مربوطة حول الصدر حتى تمنع النزيف . لكنها بدت ملوثة بالدم . وداكنة . كان ممددًا بطول العربة . متصلبًا شاحبًا لحد مذهل . ذلك الفم المفتوح . أمن الدهشة أم من المباغتة .. ؟ .. حتى الشعر المتموج المحمل بالرمل يبدو كالشيب المبكر . قدماه عاريتان بلا حذاء . أصابعة طويلة ناصعة البياض تكاد تمتد باستقامة الجسد كأنما تتشبث بالأرض . رفع فوزى أصبعه وأخذ يردد خوفًا . وعندما عاودا السير لم ينظر أحمد خلفه وبدت سيناء كالحقيقة القاسية .

وجد أحمد نفسه فوق الضفة الأخرى . جندى آخر من الشرطة العسكرية يحمل علمًا أحمر ويشير إلى نقطة مجهولة بالداخل . ذابت الأحلام . أصبحت الشمس فى ظهورهم وظل العربة يمتد . ببطء تعرى الأرض المحرمة نفسها ، التضاريس ، والصخور ، والرمل ، واللون الأصفر يبدو مختلفًا عما كان يراه من قبل أهو الدم والبارود ؟ .. وفوزى يدمدم .. يا فندم .. يا فندم .. ثم صرخ ..

– السيارة لا تسير ..

الإطارات تدور فى الرمل ، والحبات الخادعة تتسرب وتزيد من اتساع الحفرة .. عاود فوزى الصراخ .

– هذه السيارة لا تصلح للسير فوق الرمل ..

شعر أحمد أن كل شىء يتردى . كان « القول » يعانى من نفس العجز .. والعجلات تدور بلا أمل .. قفز أكثر من جندى وحاول دفع العربات . توقفت عربة الضابط وهبط مسرعًا . أخذ يجرى حتى عبر المسافة إليهم ولوح بيده ..

– ماذا تنتظرون .. أفرغوا الإطارات من الهواء ..

تنبه الجميع . لم تكن المرة الأولى التى يسمعون فيها هذا الأمر . لكنهم نسوه

فى غمرة من الخوف الجماعى .

أخذ فوزى وأحمد يفرغان الإطارات فى سرعة . انخفض مستوى العربات ، وعندما بدءوا السير بدأت العربات كأنها تأكل فى الرمل ..

فكر أحمد . لقد بدأت معركتى إذن ، لن أكف عن الاستيقاظ ولا الأحلام . هذا الأفق الممتد لم يعد ملكًا لنا بعد .. السير دون صوت يخلق حفيفًا غامضًا . الهواء يحمل فى طياته البعث والموت . .

خطوة واحدة صحيحة وسط طوفان من الأخطاء والتردى . جاء الجنود فى الظهيرة . ولن يكتمل الأمر حتى يأتى الفلاحون ليزرعوا القمح وحتى يلعب الأطفال دون خشية من الغارات . دون صوت تسير العربة وتعلن الحرب عن وجودها . المدافع المحطمة . الدشم المنيعة وأحشاؤها المتفجرة ولون البارود يغطى الرمل . طائرة هليكوبتر ممزقة والطيار مائل خارج الكابينة المحطمة . أصابت القنابل كل شىء بالرعب حتى الجبال والصخور . فمتى تنمو الزنابق وتغطى الحطام ؟ . ويجمع الطائر جناحيه ويسافر إلى بر النيل حيث تتلاصق بيوت الفقراء تنتظر آخر الأخبار .. صلى لنا يا أمى . صلى لنا ..

قال فوزى مستوحشًا : كم تبدو الأرض غريبة .. وقريبة أيضًا . منفى وملتقى . شوارع « منية عياش » الضيقة . والدروب التى تؤدى مباشرة للشمس والنهر .. يمتد نفس الدرب عبر آلاف القرى والترع والنجوع الصغيرة . وحقول القطن . ومقابر الصدقة ومستنقعات الدلتا . عبر قواقع البلهارسيا (وأسماك أبو بكر) . وغابات الطريق الصحراوى . وجناين البرتقال على حدود السويس والألغام المزروعة فى قاع القناة . عبر التبّات والخنادق العميقة وملاجئ الأفراد يمتد وينشق وسط الصخور ولا ينتهى حتى يبدو الأفق القديم وتطل الشمس

القديمة . سوف يهدم البيت الطينى وينهض بيت آخر من الطوب الأحمر . تتزوج رشيدة ويتخرج حسام ، وتقف القطارات السريعة فى محطة البلدة ، وتأتى الكهرباء . مازالت الطائرات تشق بطن السماء كأنصال السكاكين ، لكن كل شىء قد توحد . عندما تبدأ معركتى يكسبها الجميع هنا وهناك . وسوف يعلن بائع الجرائد الأعرج عن كل شىء فى وضوح . يغمس ساقه الخشبية فى الألوان ويرسم طائرًا خرافيًا كبير الحجم . وجوادًا أزرق لا يكف عن الصهيل . وعندما نصل إلى مواقعنا الجديدة سوف نقيم دشمنا ، ونضبط زوايا الضرب ، وتظل المعركة دائرة حتى نعيد ترتيب كل شىء دون صوت يسير الجميع . ولكن هذا الحفيف يصبح أشبه بأنفاس الاستيقاظ .

١٩٧٤

لحظة يمتلئ الجرح بالرماد

(٧ قصص قصيرة جدًا)

١

مثل الفراعنة القدامى . حاولت أن أزيل من فوق جسدك نقوش الذين سبقونى وأرسم نقوشى . لأن تواريخهم وأخبار الانتصارات . وآثار البصمات الغائرة كانت تقتلنى كل مساء عندما أشم رائحتك . ولقد طفت جسدك كله وتحسست أعضاءك . أبحث عن مكان خال أدون عليه انتصارًا ما . أى انتصار هزيل . لكننى لم أجد . واكتشفت لحظتها أن جسدك كان متعبًا وعجوزًا كالصفصاف .. كنت أنا آخر ملوكك وأتعسهم حظًّا .. وكان الأزميل الذى ورثته عن جدى .. صدئًا .. ومثلومًا ..

٢

كانت يدها كثيرة الخطوط . أخبرتنى أنها ذاقت من الحياة الكثير . وأنها برغم الابتسامة الواسعة لم يتح لها – ولو لمرة واحدة – أن تختار بحرية مطلقة . لم تحبنى كثيرًا . لكننى أحببت كل عضو من أعضائها بطريقة تقترب نوعًا ما من

الهوس الصوفى . لم يكن فى وجهها المستطيل ولا فى جبينها التاصع . ولا حتى فى عينيها المضيئتين القلقتين ما يوحى بمدى مرارة هذه التجارب . لعلها اختزنت فى يدها الآثار . ما هذه الخطوط إلا شذرات الأحلام المجهضة ، والأمنيات الغريبة ..

وبرغم أنها قالت أكثر من مرة إنها تشعر بمدى قصر عمرها وإن هناك مرضًا خبيثًا يلتهم لحظاتها القليلة . وبرغم ذلك كان خط العمر طويلا . يمتد من منتصف حافة الكف تقريبًا . ويستدير منحنيًا على حافة سمانة اليد . وعندما يصل إلى حد الرسغ يتكسر إلى شرط صغيرة ما تلبث أن تمحى . عمرها كان طويلا حقًّا . لكنه متقطع . ممتلئ بالفجوات المؤسفة . كانت تعانى من لحظات المرض واليأس الغريب . إلا أن الخط كان يحمل شيئًا أشبه بالرثاء الدائم . شىء من حيرة النورس وهو يرف للمرة الأخيرة ..

أحيانًا كانت تود أن تفكر بمفردها . لكنها ظلت دائمًا عاجزة عن اتخاذ أى موقف جاد لِمَ تحبّ ولِمَ تكره ؟ . وكان خط الأفكار وهو يمتد عرضيًّا بأعلى الكف غائرًا لكنه متشعب الخطوط وذبذباته قلقة متكسرة .. رقصة غريبة فوق خيط رفيع أحبتنى .. لم تحبنى ؟ .. لم أدر .. لعلها أيضًا لم تدر .. كانت آلامها نوعًا من النضوج الممزق . يقول الخط الغائر إنها عرفت الكثير . وتقول الخطوط الصغيرة المتشعبة إنها كم تألمت بهذا الكثير ..

قلت لها ضاحكا ستكون لك ثروة كبيرة .. لم تعرف أبدًا قيمة النقود الفعلية .. وكانت تحس بالذنب عندما تملك منها كمية فوق العادة . لكن « جزيرة الرزق » المثلثة وسط الكف . يحدّها من أعلى خط التعليم العرضى وخط

العمر فى انحداره المتكسر .. جزيرة كبيرة لا تقسمها الخطوط السطحية . قالت لا أريد شيئًا . قليل من الراحة وبيت بعيد عن العيون .. وجزيرة الرزق مفعمة بالنزوات وطعم الأحلام الملونة . أضافت إنها ستعطى ثروتها للأطفال .. اعترضت .. قلت لها إن أطفال العالم مجرد أشرار صغار .. كانت تكرهنى بحق عندما أبدل طبيعة الأشياء الحلوة .

لم تكن تعلم أنها طموحة . ذلك النوع من الطموح المرهف . لكن خط التعليم فى التقائه مع خط العمر عندما ينفرج عرضيًّا حتى يقسم الكف إلى نصفين يتخطى حواجز الزواج والمرض والآلام الصغيرة .. وينتهى متقوسًا حادًّا مصرًّا . وهى تسعى نحو ذلك سريعًا . حتى أننى كنت أخشى عليها من توهج الشهب الساطع المفاجئ . بعدها تتحول السماء إلى فحل أسود يائس ، وتتسع ابتسامتها الحلوة المعذبة وأنا أخبرها أن فى جانب يدها خطوطا بعدد التجارب العاطفية الفاشلة .. ولعل لى أحد تلك الخطوط الضئيلة .. قلت لها : تلك الأظافر المنحنية إلى أعلى تعنى الإرادة القوية . وكنت أعرف ذلك عندما تتحول نظراتها إلى برود كالثلج . وكان الثلاثاء هو أسعد أيامها . أضافت ضاحكة إنها ابتسمت لنفسها فى المرآة هذا الصباح ، ونادرًا ما تكون راضية . كان فى الكف أشياء كثيرة .. عن الأولاد مثلا .. عن الأمراض والأصدقاء ولحظات السفر والفراق ، لكننى لم أخبرها بشىء ، كنت فقط أود لو أرى شيئًا يخصنى .. يخصنى وحدى .. لكننى تهت بين التشعبات القلقة ..

٣

فى منتصف الكوبرى شاهدت الرجل العجوز . كانت المنصورة ساكنة تكسوها سماء من المخمل العتيق المترب غاية فى الحزن . قال لى :

– لا تثق بأحد .. أنظر إلى (أشار إلى أحد الندوب) لقد خسرت كل شيء .. سألنى عن الوقت .. نظرت سريعًا إلى ساعتى وذكرت الوقت خاطئًا . لم يلحظ أو يبالى .. واصل القول :

– المصيبة أننا لا نتعود الحزن .. ولا نستطيع التخلص منه أبدًا .. يبقى دائمًا كهذا الحجر .

أشار إلى الحجر الجيرى تحت قدميه . كان للحجر نفس حجم الكلب الصغير تقريبًا . سألته عن عمره ..

– ياه زمن بعيد ونحن نأكل معًا .. وننام معًا ..

قال الجندى الذى يقف دائمًا لحراسة الكوبرى ..

– ممنوع إلقاء القنابل فقط ..

ضحكت بجفاف ولم يتأثر العجوز . أمسك الكلب فى حنان بالغ . أخذ ف الحبل حول بطنه لفات متتابعة .. مرة واثنين وثلاثة . والكلب مستسلم فى سرور . غاصت ضحكة الجندى قال ببرود حاد .. لماذا ؟ .. أجابه العجوز دون أن يلتفت ..

– الأيام غدارة .. كل شيء غدار والله ..

بدا الجندى كئيبًا . عاود العجوز سؤاله عن الوقت . أجبته صحيحًا هذا

المرة . لم يلحظ أى تغيير . كنت أعانى من بعض المتاعب وأنتظر القطار حتى يذهب بى بعيدًا عن المنصورة . لم أكن متأكدًا من أن حزنى سوف يهدأ . لكن لم يكن لى إلا الابتعاد ..

عاود الجندى سيره النشط فوق الكوبرى . بنفس العناية بدأ الرجل يلف الطرف الآخر من الحبل حول الحجر . رفع الكلب نحوه وقد تدلى لسانه . توقف بعض المارة وألقوا تعليقات غاضبة . عاد الجندى وفرقهم بسرعة .. وهذا زمن حرب لا ينتهى . لكنه تركنى ، وقف بجانبى وقال ببود :

– ألا تشعر بخوف . أنا أشعر بغثيان . قد يظهر عفريت الكلب ويظل يعوى طوال الليل .. هه .. ؟ ..

خيل لى أن القطار يدخل محطة طلخا وهو يئن مجهدًا . لم أتحرك . انتهى العجوز من ربط الحبل . شده ليتأكد من متانته .. أخذ يداعب الكلب بحب معتاد . غرس أصابعه خلف أذنيه وتحت إبطيه . قفز الكلب فوق صدره وأصدر صوتًا رفيعًا . زعق الجندى فيه ..

– لماذا لا تنتهى ؟ ..

حمل العجوز الكلب وضعه على حاجز الكوبرى . تراجع الكلب .. أفزعه سكون الماء المترقب وهو يقشعر عن مويجات صغيرة متتابعة . أحاطته يد العجوز ومنعته من التراجع . سألنى عن الوقت للمرة الثالثة . لم أجبه . كان يمسك الكلب بكلتا يديه والحجر على الأرض .. قال متوسلا :

– ساعدانى .. أرفعا الحجر ..

رفضت . رفض الجندى وكان مختنقًا . قال العجوز موشكًا على البكاء :

– أنتما غير فاهمين .. ليس هناك مفر ..

تجمع المارة . لم يتحرك الجندى . أنزل العجوز الكلب . هز ذيله مسرورًا . رفع الحجر أولا ووضعه على السور ثم عاد ورفع الكلب . يبدو أن الكلب فى هذه اللحظة فقط قد فهم كل شيء . ابتعد الجندى . دخل القطار المحطة بالفعل .

دفع الرجل الحجر .. بوغت الكلب عندما جذبه الحبل على حين غرة . عوى عواء مبتورا . وحفيف الهواء يصدر صوتًا كالسوط . استمر المشهد عدة ثوانٍ لأن الحبل كان طويلا . طفا الكلب للحظة قصيرة جدًّا . ثم غاص فجأة دون صوت . ولم يظهر . توقف الجندى بعيدًا وهو يعطينا ظهره . خيل لى أن العجوز يبكى ، لكننى حين نظرت إلى وجهه لم أجد عليه أى تعبير . صفر القطار للمرة الأخيرة . أسرعت أجرى . كنت واثقًا من أننى لن أستطيع اللحاق به .

٤

الكوبرى الطويل المتقوس يصل بين ضفتى النهر – النهر الفاتر المقطوع اللسان عند الشلال الأول والشلال الثانى والثالث . المستسلم الكئيب الغائض بلا زبد . الزاخر بالطفيليات ، المسجى قتيلا . يمر تحته خاشعا – والكوبرى ممتنع كالشاهد الخائن . تحوم حول أذياله ريح نوفمبر ، وتدور حول أضلاعه الحديدية فى زمجرات خفيفة .

.. كان الحراس بعيدين .. وكانت الشمس بعيدة .. وكان الله أشد بعدًا .. الأعمدة النحيلة ذات الرأس الضخم مفقوءة العينين . وعندما يأتى الظلام

سوف يلفها ويلف النهر والعوامات والسمك الميت . وفى وضح النهار ستظل منتصبة تلق ظلها على النهر بلا كبرياء ولا هزيمة ..

السور الواطئ يمتد كلما امتد الكوبرى – يعلو ويتقوس ثم يهبط – أعمدته المتتابعة الرتيبة بلونها الأخضر القاتم تختلف عن الحاجز الأفقى . كانت اللمسات البشرية . لمسات الرجال المتعبين وهم يحثون السير . والعشاق الصغار . والمتأملين النهر المنتظرين أبدًا ، والنساء الخائفات ، وحفيف أردية الجنود الخشنة .. كل هذه اللمسات أزالت إخضراره القاتم وأعطته لمعة خاصة ، فيها القليل من صدأ الحديد والكثير من دفء الحياة ..

الرصيفان الضيقان مقسمان بالأبيض والأسود يحصران أرضية الكوبرى من كل جانب . الأرضية نفسها برغم صقلها الشديد لا تبدو لامعة الوجه كما يجب .. كانت ميتة تحت وطأة الصمت . تركها صباح اليوم الفائت مترقبة متخنة . تحمل على طول امتدادها كتل الأحجار وبقايا الفوارغ المعدنية المثقوبة الجوانب ..

من ناحية الضفة اليمنى لا يوجد إلا القليل من الأحجار المتناثرة . معظمها صغير . لكن ما يغطى الأرضية حقًّا هو قصاصات الورق السميكة ومزق اللافتات المكتوبة بالبوية . كانت تحمل كلمات ضخمة حروفها واضحة ، لكنها لكثرة ما تمزقت . ولكثرة ما دهستها الأقدام الخائفة والأقدام المطاردة القاسية لم تعد تُقرأ على الإطلاق .. هناك أيضًا بقع ضئيلة من الدم ذائبة فى جهامة الأرضية . لكن ذلك لم يمنع الذباب من أن يحط عليها بلا مبالاة للريح أو للحراس ..

فى المنتصف .. تتكاثف قطع الأحجار إلى حد كبير . تظهر ألونها وأشكالها

المتنوعة . الزلط الصغير الأصفر . قطع الأحجار الجيرية لونها مطفأ . شظايا من البازلت الأسود أطرافها حادة وسطحها خشن . أجزاء من قوالب طوب البناء الأحمر وقد تناثرت فوق الأرضية كأنها جرح ينزف . قطع القرميد الأرجوانى القاتم وقد فقد زهوه السابق . بين كل هذه الأنواع – سواء فى الوسط أم أعلى الرصيف – تناثرت الفوارغ المعدنية المثقوبة الجوانب كأنها عيون مبحلقة تبدو ذات خطوة خاصة .. لا تحمل – مثل بقية الأحجار – ذات الطابع العفوى .. لكنها أكثر قربًا من نية الغدر المبيت ..

وسوف يأتى المساء . حالا أو فيما بعد . ولن تضاء المصابيح . سيأتى الكناسون المحنيو الظهور . يأتون بالأمر ويذهبون بالأمر . يزيحون هذه الأحجار والفوارغ كأنما يخفون عارًا . لن يلقوها فى النهر. لأنهم لا يودون تحريكه وإيقاظ موجاته الغافلة . تحسى الطحالب المحنية الرأس . يريدونه هكذا . غائضًا . فاترًا . مستسلما كالأجنّة . سوف يحملون الأحجار إلى أماكن لا يعرفها سوى الحراس . وسيعتقدون – الحراس والكناسون – أنهم قد أخفوا كل شىء وأعادوا للكوبرى نظافته الزائفة ..

٥

القلعة .. بئر يوسف .. منتصف الطريق نحو القاع المظلم .. نحو الماء العطن ..

قالت لى لاهثة :

– كلا .. سوف نتوقف هنا ..

كنا مرهقين من كثرة النزول والانحدار . نظرت إلى أعلى حيث فتحة البئر .. السماء التى تغطيها وتغطى القلعة وتغطى مصر كلها بعيدة وبلا لون . مجرد دائرة بيضاء باهتة . قالت وهى تستند على الجدار الحجرى الخشن :

– الجزء الباقى من البئر مظلم خطر . السلالم مشققة ولا [illegible] لها ..

الرجل ذو الشارب مازال يدفع زوجته أمامه . بدا [illegible] أبلهاً [illegible]رجة ما . الزوجة الصغيرة مرعوبة من خشونته ومن جهامة الأحجار . نظر الرجل نحوى . توقف معتذرًا ..

– لم نرزق بأبناء بعد (ضحك ..) أريد ولدًا ..

ضحكت الزوجة بتردد لعله يلين . لكنه واصل دفعها ..

قالت وهى تعدل خصلات شعرها :

– ياه .. كم كان الأمر متعبًا .. لا أدرى لم طاوعتك .. ؟ ..

كنا نصعد معًا سلم القلعة . نمر خلال البوابات الحجرية . نرتاح جنب قبر الوالى التركى فى المسجد .. نتأمل بيوت القاهرة المرتعدة المتصقة . صخور المقطم الجهمة . البائعون يلاحقون السياح كالذباب . الطيور المطاردة . الحرس المرتابون . بائعو الحنة والبخور . تلمس يدى وألمس يدها . وفى أسفل القلعة تجرى صفوف النمل حتى تلحق بآخر المواصلات وآخر فرص العمل وآخر فتات العيش . وتلفح الريح وجهى فأوشك على البكاء . تحول قصر الجوهرة إلى كومة من الأخشاب المحترقة ، والقلعة إلى سراديب غامضة والسياح إلى مومياوات تتأمل كل شىء ببلاهة حقيقية ، قلت فجأة :

– سوف أنزل النصف الباقى من البئر. نظرت إلىَّ فى دهشة غاضبة .. وحدك .. ؟ ..

– وحدى ..

لم نتناقش . ترك الرجل زوجته ويحلق فىَّ قائلا .. يا أفندم لم يعد ..

لم يكمل . سرت إلى الفتحة الضيقة . تمنيت أن ألتفت وأرى عينيها قبل أن أهبط . أرى تعبير وجهها . كنت واثقًا بطريقة مبهمة من أنها لا تحبنى لذا لم ألتفت ..

مسّتنى رعدة وأنا ألمس أول درجة . تصاعدت من قدمى إلى عينى وأحسست بالرغبة فى البكاء . هبطت الدرجة الثانية والثالثة والرابعة وأصبحت بأكملى داخل البئر . وحدى كما لم أكن من قبل . ثمة ضوء يتسلل من الفتحة ينير التفاف الدرجة الأولى ، أما بعد ذلك فلا شىء . ظلام ثقيل مشبع بالرطوبة يحاصرنى وأنا التصق بالجدار . تتحفز أحجاره تحت أصابعى كالمخالب . أهبط درجة فدرجة . سوف تنصرف هى الآن . تهز كتفيها بلا مبالاة ، ويأخذها أى أتوبيس سياحى غامض . لم تكبر بطن الزوجة الصغيرة . تمر عليها شهور الحمل وتفرخ خفاشًا كبيرًا . يظل يهوم فى ظلال البئر . وتأتى أعوام الجفاف . سبعة أعوام . عشرون عامًا . ومازال النيل يفيض . تحرق الشمس قيعانه الطحلبية وينشر عفونة الأسماك . وأنا أهبط قد لا يكون هناك طريق للعودة . أسمع صوت أنفاس أصداء موحشة ترددها الجدران الأربعة . أسمع دبيب أقدامى . خطو غريب يدق حولى ثم يقودنى إلى حيث لا أعلم . لم أعد بحاجة للشمس . هذا الظلام هو خجل السنوات العجاف كلها . وهذه الأرض الشراقى تسكن أخاديدها الفئران . أهبط الدرج عاجزًا عن عدها . والهواء الراكد يرسل داخلى إحساسًا بالشيخوخة . يزيد من تجاعيد وجهى ومن خوفى من دائرة الضوء

البعيد . من السماء التى لا لون لها . ومن حفيف ثياب الحراس السميكة ..

تعودت عيناى الظلمة . لم أر تفاصيل البئر . لكنى أحسسته يتشكل أمامى . أحسست أبعاد جدرانه بالمسافة التى هبطتها والتى فى انتظارى . أحسست أننى لو هبطت للنهاية ربما أمكننى العودة ولو أننى توقفت فى المنتصف القاسى ربما سقطت . ربما تجمدت حتى تزيحنى خطوة القادمين الجدد . زادت سرعة هبوطى درجة .. درجتين . لا أرى . أشعر بالماء يقترب . ماء النيل القديم . عندما حملته جرار يوسف للمرة الأولى . بعدها غير النيل مجراه وازدادت وطأة الجفاف .

انتهى الجزء الباقى من الدرج . أصبح الماء أمامى . لم أره جيدًا . جلست على الحافة الحجرية ومددت يدى فى حذر . ظلت تغوص فى الفراغ المظلم حتى لمست السطح البارد . ارتعدت . أصدرت المياه صوتًا خافتًا كأنى أيقظتها من الموت . أرجعت يدى بسرعة . لو أننى بكيت الآن فلن يرانى أحد . لن ترانى هى ولا الزوجة الخائفة ولا السياح . ولن يرى الحرس دموعى . أنزويت فى الجدار أكثر . أصبحت ضئيلا . لدرجة التلاشى .. بدأ الهواء فى التحرك ومويجات الماء تصدر أنينًا خافتًا . فتحت عينى أو لم أفتحها . نهضت أو لم أنهض .. صرخت .. تكلمت .. ازداد صمتى .. لم أدر .. كان يوسف أمامى جالسًا وسط الماء الراكد عاريًا . يبدو جسده الأبيض النحيف شاحبًا لدرجة الزرقة . ضامًّا يده إلى صدره . مكومًا ساقيه حتى أوشكت ركبتاه أن تلمسا ذقنه . وحيدًا وسط فراغ البئر .. ميتًا حيًّا .. يبكى فى نحيب خافت ..

٦

فاجأنى منظر المرأة . ضحك صديق وهو يدفعها عبر الباب للداخل ..

– أعرف أنها ضخمة .. لكن هذا أفضل نوع للنحاف من أمثالك ..

ضحكت هى . بانت تجاعيد وجهها . كانت كبيرة السن أيضًا .. أغلق صديق الباب . سمعت صوت أقدامه وهو يهبط مسرعًا ظلت تبحلق فىَّ مبتسمة . لم تكن تسخر بلا شك .. سارت بتمهل .. قالت كلمة أوكلمتين عن الشقة . سألتنى عن اسمى . ضحكت فجأة بصوت عالٍ ممطوط . جلست على حافة السرير وهى تقول :

– أليس عندك ما يشرب .. ؟ ..

وأنا أسير خلال برد الليل . غاصت فى ضلوعى أطراف الأغصان الجافة .. ادهشنى أنى عاجز عن الحلم وعن الرغبة فى التحول . أدهشنى أننى متخم بالذكريات المبتورة وورق الزهر الجاف وبقايا السجائر ..

ضحكت المرأة حين رأتنى أحمل كوب الشاى . كانت قد خلعت ثوبها الخارجى ووضعته بعناية فوق مقعد جنب السرير . قميصها الداخلى رث . تمامًا كأجزاء جسدها التى تظهر من خلاله . هكذا إذن . انطفأت أقمارى الملونة . ودعنا بعضنا منذ شهر وأصبحت الأيام مالحة . مزقت صورتها هذا الصباح . آخر ما تبقى منها هكذا إذن . جلست المرأة على حافة السرير . سألت وهى ترمقنى بطرف عينيها إن كانت هى المرة الأولى ؟ . هكذا إذن . تنحسر الشمس عن أعضائى العارية وتتركنى رمادًا معتمًا . قلت لها .. ما اسمك .. ؟ .. قالت

اسمًا ما – مزيفًا .. سألتها .. ماسنك ؟ .. قالت رقما ما – مزيفًا . سألت عن بلدتها .. تمهلت قليلا حتى عاودت السؤال .. أجابت بغتة كأنما تطعننى ..

– أنا من السويس ..

توقفت أصابعى وهى تفك ثالث أزرار القميص . تصاعد خيط بخار الماء فوق حافة كوب الشاى ، تلوى ببطء ارتاح كل جسدها فوق السرير ، وبدا فخذاها الضخمان يوشكان أن يمزقا القميص الرث .. قلت ماذا ؟ .. وأحسست بالبلاهة .. رددت الاسم مرة أخرى . نظرت نحوى مهتمة للمرة الأولى منذ بداية الليل . سألتنى بشدة .

– هل أنت من السويس .. ؟ ..

نفيت ذلك . ضحكت حتى أؤكد نفيى . كنت فقط قد رأيت السويس .. عرفت صورها غير الملونة . كنت فقط أعانى من حالة خاصة غاية فى الخصوصية . مؤداها أنها تركتنى . وثقت بها وحلمت بها لكنها تركتنى . قالت كثيرًا من الأسباب التى لم تقنعنى . وكانت السويس هناك . خلف عشرات الكيلو مترات الصحراوية الموحشة . خلف الأسلاك والألغام والغابات المتحجرة . أبعد ما تكون عن غرفتى بالدور الثانى . عن سريرى الخشبى الذى أشتريته بالتقسيط . لم تكن أكثر من مدينة نائية بها الكثير من الأحياء الفقيرة والناس الفقراء .. القليل من النساء الجميلات والأطفال المكتملى النمو .. لكننى قلت لها :

هل تعنى السويس شيئًا خاصًا .. ؟ ..

كانت حزينة خائفة من أن يزيد الحزن عدد التجاعيد .. قالت بسرعة :

الماضى فقط .. السويس تعنى ماضى لا طعم له ..

كنت أخشى أن ترانى عاريًا .. نحيلا . كنت أكره قفصى الصدرى الضيق وانحناءه المحدب إلى الأمام . وساقى يكسوها الشعر المشرئب . كنت أخشى أن تضحك . لأنها بلا شك عرفت الكثير من رجال السويس والأماكن الأخرى .. قلت متأسيًّا فجأة :

لم أعرف السويس جيدًا ..

أدركت أننى أكذب . إننى كلما تناولت طعامًا فى الصباح أو فى المساء أوشك أن أتقيأ ذلك الصديق عندما حاول أن يملأ جرحى بالرماد زاد من حدته . كنت أعرف السويس جيدًا . مثلما أحببت للمرة الأولى . مثلما انتهى كل شىء بغتة وأن المصابيح الخافتة والزجاج الأزرق والزيجات السريعة وإجازات الساعات القليلة وهى تضيع فى المواصلات . والوعود الوعود الوعود اللهاث . عيون الجنود . مانشيتات الجرائد . موجز النشرات . شنط المهربين . لحظات الحب الميت . الصورة التى كانت آخر ما مزقت الشعارات المختلفة عرفتها جيدا .. كانت تضاريس الشوارع هى تجاعيد الزمن فوق فخذى المرأة والبيوت المهدمة هى ملامحى وأسنانى التى لوثتها السجائر . كذبتى اليومية .. شاى اصطباحى البارد ..

وجدت المرأة تمسك الصورة . تتأملها بنفس الهدوء الساخر .. أصابنى الرعب . خطفتها من يدها .. علقت هى بهدوء .

– فتاة حلوة ..

كنت مخنوقًا ..

– من أين أتيت بها ؟ .

أجابت ببساطة .. كانت تحت الوسادة ..

كنت قد مزقتها هذا الصباح . قطعت أوصال هذه الملامح . قتلت ابتسامة التصوير الزائفة . أدرت ظهرى وحسبت أنه يكفى أن آكل بشهية . أقرأ جرائد اليوم بلا إهتمام . أنام نومًا عميقًا دون أن أحلم .

أنتظر العلاوة .. و .. و .. لكن الصورة .. والسويس .. والمرأة العجوز مستندة على وسادتى . نائمة على سريرى .. لازالت قادرة على الكلام .

– لا تكن كئيبًا لهذه الدرجة .. أطفئ النور وتعال جانبى .. هذه أولى تجاربك أليس كذلك .. ؟ ..

٧

دفعت التيارات جثتى إلى أعلى . كانت متيبسة ومفرودة حتى أنها استطاعت الطفو . وكانت أصابع يدها متقوسة – قابضة على حفنة من طين القاع والطحالب الرخوة . لكن الماء أذاب كل شىء وبقيت أصابع جثتى متقوسة – قابضة على لا شىء .

لمست الشمس الماء والشاطئ . وظلت جثتى طافية فوق السطح . شاحبة زرقاء . يتسرب الماء حول أعضائها النحيلة ويدفعها أمامه . نظيفة كما لم تكن من قبل . عالقًا بقدميهابضع من الأعشاب الموحشة تبحلق المدن الصغيرة فى جثتى ببلاهة . دون أن نتعرف عليها . وجثتى – قديما – كانت تتعشق كل تلك الأشياء . تتشهاها بلهفة العمر القصير وحرقة الساعات الوجيزة . فيما تمضى أيام الموت . فيما تمضى الأحلام . وفيما يغرد طائر مقصوص الجناح .. كأنه ينعى جثتى بلا مقابل .

وجه جثتى دائمًا للسماء – السماء العتيقة المتناهية البعد كأنها أكذوبة – مزموم الفم . أزرق الشفتين زرقة حالكة . بوجنتيه آثار حب الشباب . تملؤها المياه وتخففها الشمس . الحدقتان مطبقتان على فراغ . بقية الجسد الظاهر سليمة ناصعة . الجروح كلها فى الظهر طولية متجاورة .. زال لونها وما فيها من ماء . فبدت كأنها شفاه مفغورة رعبًا ..

تغيب الشمس ولا تنى جثتى عن السفر . لا تنى عن عبور الشواطئ التى تنكرها والتى حلمت هى دومًا بأمنها الزائف . بساكنيها المنكسرى العيون . الخائفين لسعة السياط وأرقام جبة الضرب . حلمت جثتى ببيت صغير وسط الخضرة ، ليست به غرفات داخلية ولا حواجز ، مجرد صالة واسعة تضم كل الحاجيات اليومية والكتب ، وقصاصات المشاريع المؤجلة . تواصل جثتى السفر . تفقد ملامحها وحدّة خوفها . حتى مرارة الغدر يشكلها الماء طَوْفًا مجمدا .. عابرا ..

وفى يوم ما . دفع التيار جثتى قرب الشاطئ . لم يكن أحد هناك وظلت تقترب حتى التصقت كتفها اليسرى بلسان طينى ممتد . دفعها التيار فازدادت التصاقا . أصبحتا كأنهما كتلة واحدة لا يفرقها سوى اللون . كانت فى الطين املاح وبذور وجذور مختبئة . لكن ذلك لم يمنح جثتى نبضة واحدة . ظل لونها يزداد قتامة وأعضائها تزداد ضمورا . ويوما بعد يوم . تصبح الأوردة الزرقاء تحت الجلد كأنها حروف مهشمة عاودت التيارات دفع جثتى إلى منتصف النهر وظل الطين ملتصقا بها لفترة .. حتى أذاب الماء – كالعادة – كل شيء ..

طوال هذا السفر لم يرأحد جثتى . أو أن أحدا رآها ولم يعر الأمر اهتماما . ولقد حاول أبو جثتى وأم جثتى البحث عنها . ذهبا إلى أقسام البوليس

والمستشفيات . وسألا الأصدقاء . لكن الجميع التزموا الصمت . التزموا صمتا مطلقا كأنهم يخفون عارا أو جريمة .. وعاد والدا جثتى عجوزين فوق العادة . تأملا الغرفة الساكنة والكتب الكثيرة والراديو نصف المهشم الفارغ البطاريات . تأملا أوراق جثتى بحروفها المنمنمة الصغيرة . وقمصانها المعلقة على مسمار فوق الحائط . والحذاء القديم جنب المقعد . تذكرا فجأة حزنهما المتكرر وهما يريان جثتى تقرأ وتكتب وتردد الكلام المحظور . تذكرا فرحتهما عند مجئ كل صباح عندما يريان جثتى مازالت فى الفراش تعاكسها ساعة النهوض ولا يعجبها فول الفطار . هجمت على ذهنيهما المتعبين الآف الذكريات والعذابات الصغيرة فانزويا فى أحد الأركان عاجزين – معا – عن البكاء . ومن بعيد تعالى صوت فيروز وهى تغنى .. دائما تغنى فيروز من بعيد .. رفعا رأسيهما وأنصتا معا . وكان فى نبراتها المعذبة شيء من الرثاء وشيء من السلوى ..

دارت دوامات النهر بجثتى . دارت جثتى حول صخرة نائية . حفت بها ثم واصلت الطفو ببطء . أقترب المصب وأصبحت تيارات النهر غاية فى الوهن . لكنه فى منتصف يوم ما . انفجرت بطن جثتى . ظلت غازات العفونة تملؤها وتضغط جدارها المتيبس المبلل حتى انفجرت . خلال كل هذه الرحلة . وجثتى تتآكل من الداخل يذيبها النهر بضراوة ناعمة . يحولها إلى قذ يومى . حتى أن بطن جثتى انفجرت ووقفت مكانها برهة وجيزة ثم غاصت فجأة . حتى أن الهواء زام فى رضى وأخفى النهر لقمته السائغة . حتى أن الضفة المشرئبة والأرض البور لم تظفر بشيء . حتى أن الأسماك شعرت بالاشمئزاز للمرة الأولى فابتعدت . حتى أن القاع كان مظلما مظلما .. باردا باردا .. قاسيا قاسيا ..

من الذي قتل مريم الصافي..؟

س : أين كنت عندما حملت المياه الجثة إلى الشاطئ..؟
جـ : لا أستطيع أن أقول يا بيه .
س : هذا محضر رسمى ويجب أن تتكلم .
جـ : كنت خلف الأشجار أفعل مثل الناس .

إشتم صلاح رائحة الجثة المنتفخة بالمياه . توحدت العفونة ورائحة النهر والفضلات العائمة والروث وأكوام السباخ ، وامتد النهر الداكن وربض الجبل على ضفته الغربية . دق العسكرى الأرض يؤدى التحية.وانحى الحصان يبحث عن العشب فتخزه الأشواك البرية . ضرب العمدة كفًّا بكف . وأخفت غيطان النخل الناس والبيوت والمقابر ، وهبت ريح الموتى . هذه هى الجثة الخامسة واليوم الخامس والساعة الخامسة . خلق الله النهر والموت والفلاحين والبهائم والشمس وترك صلاح بهذه الحيرة .. أشار لبقية العساكر ..

– غطوا الجثة حتى تأتى النيابة والطبيب الشرعى . لا تحركوا شيئًا عن موضعه . همهم العمدة بصوته الأجش كأنما يحدث نفسه ..

– بلدنا طول عمرها (ناس طيبين) .. لا أدرى من أين جاء هذا البلاء .. ؟

فكر صلاح . الآن تغرب الشمس وتتركنى وحيدًا . وسط ثرثرة الضفادع . ودبيب الفئران وعواء الضباع . وهى تجوس خلال المقابر . قال مهددًا ..

– يا عمدة أنت مسئول . هذه خامس جثة وأنت لا تقدم أى معاونة ..

– يا حضرة الضابط هذه جثث غريبة لأناس غرباء ، ولا صلة لبلدنا بهم .. إنهم طرح البحر ..

– لقد فشلت فى التعرف على أى جثة ..

– لأنها منتفخة ومشوهة يا بيه ..

خمس جثث . ثلاثة رجال وامرأتان . كلهم عرايا . قتلوا أولا ، ثم ألقوا فى النهر . والنهر يسير ساكنًا شديد البراءة . هادئًا بالغ الحكمة . والفلاحون صامتون . عيونهم الملتصقة تجعل عددهم مضاعفًا . تنصب شراك التستر ..

هل يحمل النهر كل هذه الجثث بمحض المصادفة .. ؟ .

س : هل تستطيع التعرف على هذه الجثة ؟ .

جـ : لا يابيه ..

س : منذ متى تغيب أخوك .. ؟ ..

جـ : ذهب للبندر منذ أسبوع .

س : ألا يوجد أى شبه بين هذه الجثة وأخيك ؟ ..

جـ : لا أعرف يا بيه ..

إن الليل لهم . يشعلون مواقد الحطب والجلة والقوالح ، فيهبط الليل سحابة كثيفة من الدخان .

صلاح على جواده يتبعه اثنان من العسكر . يهتفان فى فزع عند ظهور أعواد الذرة الشامى .. يا حضرة الضابط . هذا أوان « الشامى » والطرق خطرة . حتى القمر يبدو كالجثة العارية . كيف يمكن مطاردة القتلة وهذه أرضهم ؟ ما أشد كثافة « الشامى » ، وأطول قصص الثأر . يهتف أبوه . أنت ناعم مثل أمك . الحياة العسكرية لا تصلح لأمثالك .. يشد قامته ويضم قدميه .. تمام يا فندم . كان أبوه واقفًا فى صالة البيت مرتديًا حلته العسكرية كاملة وكل طبقات النياشين . خلف صورة جده . نفس الحلة العسكرية وكل طبقات النياشين . إن الليل لهم . بالغ الظلمة . تعلق ذراته السوداء بالثياب .. وتضيع الحقيقة خلف ملامحهم الجامدة وأرضهم الجافة . فى الغيطان والبيوت فى مجالس الشاى . وفى أكواخ البوص . يتبادلون سنة الأفيون . ويصنعون الأسلحة النارية من بقايا المواسير والأسلاك والخشب . كل يحمل سلاحه القاتل باعتزاز ، ويرمى النهر بالجثث . يبعث صلاح بالإشارات المتوالية لكل القرى على امتداد النهر . والإجابة لا تتغير . الأمن مستتب . لا أحد غائب . لا أحد مفقود .. والليل لهم ، قتلة ومقتولين . وخلف وداعتهم الساكنة يربض الحقد البدائى . صلاح يلهث . يقتحم البيوت . يهدد الرجال والنساء تأتى النيابة وتذهب النيابة . يضع المشتبه فيهم فى الحجز . يصادر الأسلحة ويحرر المحاضر القاسية .. دون جدوى .. حتى سلطان عامل المياه ومرشده داخل البلدة . يقدم كل ليلة تقريرًا .. لكن الليل لهم . والتقارير حافلة بالريبة وخالية من الأدلة . صلاح وحيد وسط البلدة الواسعة . نقطة البوليس ضئيلة مبنية على الطراز الإنجليزى يغطيها قرميد أحمر . وسوف ينام صلاح ويصحو غدًا ليستقبل الجثة السادسة . قال العمدة ..

– لن تنصرف وأنت غاضب منا .. لابد أن تأتى معى للعشاء ..

همهم فى قرف .. ضرب الحصان الأرض بحافره فى تحفز وصمم العمدة على دعوته :

– تناول معنا الشاى إذن . سوف أجمع البلد وتتحدث معهم قبل أن تأتى النيابة .

كان صلاح يحتقرهم .. ولكنه كان . مرتبطًا بهم وبروث البهائم وبعيدان الحطب الجافة فوق الأسطح ، خلع أحد العساكر حزامه وأخذ يضرب جموع الرجال والأطفال .. تمتم صلاح ،

– لن ينصلح الأمر حتى تأتى قوة من المركز وتحاصر البلد ..

– يا سعادة البيه . القتيل الذى لا « دية » له .. لا قيمة له ..

أحاط أعيان البلدة بصلاح . العمدة ونائبه ، وشيخ البلد وشيخ الغفر . حمحم الحصان وعلت أصوات الطيور الجارحة وهى تصرخ . منزل العمدة ، مبنى بالطوب الأحمر . طلاؤه فاقع وسط بيوت الطين . لا يلتصق به بيت ولا يعلو قامته بيت . قفز العمدة يتقدمه على الدرج .

– إتفضل يا سعادة البيه . وسع يا ولد . وسعى يا بنت ..

فكر صلاح . هذه الجلسة السخيفة وأدوار الشاى الثقيل . جلس فى صدر المجلس . تبعته رائحة العفونة . جلس العمدة على أريكة موازية . جلس بقية الأعيان على كراسى متفرقة وجلس الفلاحون على الأرض . ووقف الغفر عند الباب . وألح العمدة كالذبابة .. العشاء . العشاء .. رفض صلاح . تأمل وجوههم الداكنة .. أهذه وجوه قتلة ؟ .. يعرف أن القتل هنا يتم بسهولة رى الأرض الشراقى . لكنهم صامدون لنظراته ولتهديداته . إنهم أكثر خبثًا مما يتصور .. قال بصوت خافت مسموع ..

– كل الجثث عارية . مطعونة بالسكين أكثر من طعنة .. فى البطن . فى الظهر . الحوض . لون الدم المتجمد متشابه . كلهم فى وسط العمر . هل عامت الجثث فوق النهر مسافة طويلة . هل كانت راقدة فى القاع وطفت بعد أن تشبعت بالماء .. لا أحد يعرف ؟ . لا أحد يعرف من حفر النهر ومده وسماه « بحر يوسف » . عضلاتهم متقلصة . كلهم قاوموا بنفس الطريقة وماتوا بنفس الطريقة . النسوة كن نسوة . ولم يغتصبن . الرجال عيونهم جاحظة وملامحهم فيها من الدهشة أكثر من الرعب . لم أر جثثًا بهذه البشاعة ، ولا بلادًا بهذه الوعورة ، ولا ليلاً بهذا الثقل . عندما أغفو أحلم بنقطة البوليس والسقف القرميدى يتساقط فوقى كالمطر .. هذا المفتش الإنجليزى كيف وصل إلى هذا المكان وكيف لم يصب بالجنون .. ؟

صمتوا . ذابت ملامحهم الجامدة . توقف الغفر على الباب حاملين (صوانى) الشاى الثقيل . طغت المرارة فى أعماق صلاح . سوف يعود لأبيه ويقف أمامه منكسًا .. لقد فشلت يافندم .. فيصرخ فيه . أنت ابن امك ولست ابنى . وقبل أن يتحرك أحد من الجالسين رأى صلاح أباه يقتحم باب العمدة . يهوى بكرباجه على أقفية الجميع . ومن الخارج لاحقه صوت بروجى يردد نوبة « صحيان » من أجل يقظة كل الموتى . يقف الفلاحون صفًّا واحدًا ويأمرهم الأب « صفا انتباه » . تحول العمدة إلى حصان يصهل بصوته الأجش المميز .. صاح الأب .. من منكم القاتل يا أوباش . رفع كل واحد أصبعه . دمدموا بهدير من الاعترافات .. طرقع الأب بالكرباج وهوى به على وجه صلاح .. أهى ضربة سوط أم صفعة ؟ .. قدم العمدة كوب الشاى .

– لا عليك يا سعادة البيه .. سوف تظهر الحقيقة وتعرف أن كل هؤلاء

الناس أبرياء .. تجمع الكثير من أهل البلد . فلاحين وأجراء ومتعطلين ومشبوهين وأصحاب سوابق وعساكر .. حتى حفار القبور . كلهم يعرفون إلا هو . هذه الجثث لم تأت من بلد أخرى . كانت رابضة هنا .. داخلهم وفى جوف النهر المتواطئ ..

إنتبه على أصوات شجار بالخارج . صوت امرأة محتد تسب الجميع . رفع العمدة رأسه محرجًا . توقف صلاح عن شرب الشاى . اتجهت رءوس الجالسين للباب . دخل الغفير نظر لصلاح وللرجال وللعمدة .. إنها مريم .. قال العمدة .. ماذا ؟ .. سوف أخرج إليها .. لكن مريم بدت على الباب وهى تقول بصوت مرتفع ..

– وهل تحسبنى أخشى مجلس الرجال .. ؟

انتفض العمدة . وضع كل هيبته فى صوته وهتف فيها ..

– عيب يا بنت . اذهبى بعيدًا واجلسى وسط الحريم ..

لم تهتز . وضعت يدها وسطها .

– العيب لا تعرفه أنت . كل ما تفعله هو أن ترسل الغفر ورائى ، وأن تجيد نصب الشباك لى . إسمع أنا أتاجر مع الجن الأزرق . لكننى آكل بعرق جبينى .. فاهم . فقد العمدة صوته . انزاح الجالسون جنب الحائط . وقفت هى فى منتصف القاعة . فكر صلاح . إنها ليست منهم . واصلت التهديد ..

– لا شأن لك بى . لا أنت ولا الغفر .. وها أنا أقول لك أمام سعادة البيه الضابط ، التفتت ناحية صلاح ورمقته نظرة قصيرة ، فاكتشف كم تبدو عيناها متألقتان . فكر مدهوشًا ، يا إلهى أين رأيت هذا الوجه قبل الآن ؟ .. وقبل أن ينبس أحد بحرف استدارت وخرجت .

كان سلطان يخفى ابتسامة الرضا ، وحفار القبور ساهم ، وشيخ البلد شامت ، والعمدة تضاءل حجمه وذابت هيبته . غمغم بعد برهة .. « فاجرة » . همهم الجميع يؤيدونه ، رمق صلاح يستجديه تعليقًا . لكنه كان يفكر بالرغم عنه فى وجهها المحتقن الغاضب . قال شيخ البلد ..

– منذ أن تركها زوجها وذهب إلى « ليبيا » وهى طائحة فى البلد .

قال شيخ الغفر فى حمية وهو يضرب على بندقيته البدائية .

– لو أمرتنى لأطلقت عليها النار فى الحال ..

قال صلاح بملل .

– كل الذين شاهدوا الجثة اليوم عليهم أن يمثلوا أمام النيابة .

أومأ العمدة طائعًا .. واصل صلاح :

– وكل من لديه سلاح غير مرخص .. سوف يسحب منه ويعاقب .

فرقع هذا التهديد ونهض . لم يكن للعمدة القدرة على استبقائه . إجتاز القاعة قبل أن يتمكن أحد من النهوض . صهل الحصان حين شاهده . وخفف هذا من مقدار تعاسته .. قال للعساكر سوف أعود وحيدًا . امتطى الحصان ولكزه . أصبحت قامته أعلى من الأبواب . فى موازاة الأسطح . ابتعدت الأرض الترابية القذرة . وظلت السحب بعيدة . دار مع تقاطع الدروب . فكر . سوف أستدعى جنودًا من المركز ، وأداهم كل البيوت دفعة واحدة ..

فى الشارع الرئيسى الذى يقسم البلدة . زامت الريح . دفعت بقايا القش والعشب . تلاطم سعف النخل . رأى المرأة تسير أمامه فى نهاية الشارع . برغم العتمة كان متأكدًا أنها هى . تسير بنفس الثقة التى تتحدث بها . تمهل بالجواد . وقع حوافره أشبه بالوجيب . مالت لجانب من الطريق دون أن تتوقف . ظل

يتباطأ . يلح عليها بوقع السنابك ، وعندما أصبح فى موازاتها التفتت . أعطته نظرة أخرى متألقة . ومضة . متفردة . لا يمكن أن تحمل مثلها نساء البلدة بوجوههن البلهاء . ولا الرجال العاجزين . صارمة وحنونة . فيها نفور ومشاركة .. هل تعرف مدى وحدته.. ؟ .. أين رأى هذا الوجه قبل الآن ؟

فكر أن يتكلم . انتظر حتى تتكلم . لكنها الريح تزوم . والجواد يحمله بعيدًا . والعينان تومضان أمامه . وعندما إنتهى الشارع استدار بالجواد دفعة واحدة . رآها واقفة أمام أحد البيوت . كانت توشك على الدخول لكنها انتظرت حتى يستدير . ظلت واقفة لبرهة . ثم دخلت ببطء . وسمع صلاح صوت إغلاق الباب . ورأى النخلات الثلاثة تتلاطم بعنف .

حقول واسعة . دنيا خرافية . ظلمة كثيفة ونجوم بعيدة الغور . قمر شاحب . نخل وجبال وترع ضحلة ، وأسلاك تليفون تئز ، وطلقات طائشة ووحدة باردة . نقطة البوليس وسط جذوع النخل . غابة من القضبان العمودية . والسقف القرميدى كأنه كاب المفتش الإنجليزى فكر . سوف أكتب خطابًا لأبى حتى لا يموت وحيدًا . ولابنة عمى حتى لا يضنيها الهجر كطالبات المدارس . يكتب بخط كبير لأن حروفه (المنمنمة) تتعب عينيها . تخفيهما بالنظارة لم ير أبدًا لونهما .. وظل وجهها لغزًا . أمره أبوه . طبعًا . سوف تتزوج إبنة عمك.على الأقل مضمونة . أم تريد تكرار تجربة أمك . ضم قدميه وعدل قامته .. تمام يافندم .. العسكرى « النوبتجى » نائم على المكتب . نهض فزعًا عندما خبط صلاح الباب . كله تمام . لم تأت مكالمات . كل الإشارات بالنفى . لم يشك أحد من غياب أحد . أمسك صلاح محاضر التحقيق . الأوراق تمام يا افندم وهذا هو المهم . أوراق . أوراق . عشرات الأسئلة والأجوبة محاولة عبثية للنفاذ

تحت جلودهم . قلب الأوراق . الجثة الأولى والثانية والثالثة لم يستدل على شىء ..

س : أين ذهب زوجك ؟

جـ : ذهب عند زوجته الثانية فى البلدة المجاورة .

س : اتصلنا بهذه البلدة وتبين أنه غير موجود ..

جـ : لعله تزوج واحدة ثالثة فى بلدة لا أعرفها .

س : متى كانت آخر مرة رأيته فيها .. ؟

جـ : قبل أن يبصق فى وجهى ويضرب الباب ويقول إن راحته فى البيت الثانى .

س : هل شاهدت الجثث ؟ ..

جـ : نعم ..

س : هل تعرفت على أى جثة من جثث الرجال ؟ ..

جـ : لا يا بيه .. زوجى يتزوج مرة واثنين وثلاثة لكنه لا يموت ..

قال للنوبتجى إنه ذاهب لسكنه ولا يريد إزعاجًا . تمنى لو أنه يجد أقراصًا منومة ، سوف يساعده هذا على اختصار ليلة أخرى كئيبة . فى الأوانى بقايا طعام بارد . وعلى المنضدة روايات بوليسية . قرأها أكثر من مرة وأصبحت ألغازها ساذجة . استلقى على السرير بكامل ثيابه . جلس أبوه على الكرسى المقابل . وضع عصا الحكمدارية على ركبتيه وعوج طربوشه على ناحية . أخذ صلاح يسبح فى بحر يوسف ويحاول تجنب الفضلات . أشعل أهل البلدة نارًا هائلة ألقوا فيها كل ما فوق البيوت من قش . ألقت مريم إليه حبلا مجدولا من ألياف النخل . هتفت: تشبث . كررت إبنة عمه كالأسطوانة المشروخة : أنت

لا تحبنى . لا تحبنى . انطلق بالجواد فرأى الخضرة زاهية وسباط البلح كالجمر . والجثث معلقة عارية على جذوع النخل وعورتها مكشوفة برم أبوه طرف شاربه . سين سؤال . لقد ذهبت للصعيد . هل عثرت على أمك . بكى الطفل الصغير . أمى ماتت . نهره الأب . إنها تعيش فى مكان آخر مع رجل آخر ، رفعت مريم عصا غليظة وهوت بها على رأس العمدة . تحطم الرأس مثل إناء الفخار وخرجت منه عشرات الحشرات الزاحفة . سألته سعاد باهتمام .. هل ذهبت إلى أحد البيوت المشبوهة . قال صلاح . أنت مجنونة . كيف تفكر فتاة محترمة فى هذه الأمور . ضحكت بصوت ذكرته بضحكة إحدى المحجوزات فى قضايا الآداب . سار حفار القبور على حافة الترعة . تعلق بأغصان اللبلاب وأخذ يتأرجح ببطء شديد . حاول صلاح أن يتعلق بقدميه لكن دوامات الماء الداكن ظلت تجذبه . قال الأب دامعًا . عندما أموت سوف تكرهنى . أليس كذلك ؟ .. ضم قدميه وشد قامته .. تمام يافندم .. غضب الأب . ضرب المنضدة ضربات غاضبة . تقافز كل ما فوقها من أوان زجاجية . ارتعد صلاح وعندما استيقظ كان العرق يغطى وجهه وكان هناك من يدق الباب ..

نهض . أشعل « الكلوب » بدا سلطان على عتبة الباب . يبتسم الابتسامة التى يجيدها المرشدون .. خليط من طلب الرضا ومن الإحساس بالذنب . قال صلاح مقروفًا .

– سوف أبحث عن شخص آخر غيرك . أكثر ذكاءً وأكثر فائدة . دخل سلطان . أغلق الباب خلفه كمن تعود هذا الاستقبال .

– أنا رجلك وخدامك يا بيه .

– لا تقل لى أى أخبار أو وشايات . لست بحاجة لغسيل البلد الوسخ .

– صدقنى يا بيه . الأمر هام هذه المرة .

أشار صلاح للمطبخ . اصنع لنا شايًا . قال سلطان . أمرك يا بيه . اختفى داخله . شعر صلاح بصداع شديد .. جلس ساكنًا ومازالت صور الحلم تلاحقه .

صنع سلطان الشاى . جلسا حول المنضدة متقاربى الرأسين والكلوب بينهما . أشعل صلاح سيجارة وأعطاها له .

– لا تخبرنى عن أى شأن من شئون البلد .. هل هناك شىء عن الجثث .

– هذا ماجئت من أجله ..

– إن لم تكن أخبارًا مهمة فسوف أضعك فى الحجز ..

رشف سلطان الشاى بصوت مسموع ونفث خيطًا من الدخان ..

– أحدهم تعرف على جثة تخصه ..

توقف كوب الشاى فى يد صلاح . حقًّا .. من ؟ .. ابتسم سلطان .. الجثة الثالثة كانت لرجل .. اليس كذلك ؟ . قال صلاح .. أجل .. أجل .. واصل سلطان بتمهل .. زوجته تعرفت عليه . لم يكتشف أحد غيرى هذا الأمر .. قال صلاح .. من هى .. هل أعرفها ؟ قال سلطان .. مريم .. هتف صلاح .. من ؟ .. قال سلطان .. مريم الصافى المرأة التى رأيتها فى مجلس العمدة . قال صلاح مذعورًا .. ولكن زوجها فى ليبيا .. قال .. هكذا كان يظن الجميع حتى حملت الأمواج جثته ..

– أنت تكذب ..

رد سلطان بهدوء وعلى وجهه نفس الابتسامة السخيفة .

– ولماذا أفعل هذا يا بيه .. ؟ ..

غير معقول . رددها صلاح . رآها واقفة تهدد العمدة . تستدير لتنظر إليه . تتمهل قبل أن تدخل .. لا يبدو عليها حزن أو صدمة . وسلطان يتكلم . كيف رآها تتسلل بعد أن ذهب الضابط وتشاغلت العساكر . كيف كشفت الجثة وتأملتها . كيف زارت القبر وتخلصت من الملابس . جولاتها الليلية . الغموض الذى أحاط بسفر زوجها ولم يصل منه خطاب واحد .. لا لها ولا لأى واحد فى البلد . كانت تكرهه . تتهمه بأنه ليس رجلا ، لعلها استأجرت من قتله حتى تستريح . العمدة يريد ضمها لحريمه . شيخ البلد ينافسه فى الخفاء . تتاجر فى الفراخ والبيض والسمن . لم تنجب ولدًا لأن زوجها كان عاجزًا . حكاية ليبيا خدعة . وظل صلاح يدفع الأمر حتى اكتشف أنه يدفعه بمحض شعوره الشخصى ، ولو كان سلطان صادقًا فلعل هذا خيط الضوء الضئيل الذى ينتظره . اقترح سلطان . أحضرها للنقطة يا بيه ، ودع العساكر يضربونها علقة جامدة وسوف تعترف . رأى صلاح العساكر يخلعون الأحزمة ويهوون على جسدها الأبيض ولا يتركونه سوى مزقًا حمراء . تناول سلطان آخر رشفة من الشاى ووضع بقية علبة السجائر فى جيبه وانصرف . ارتدى صلاح ملابسه وهو يرتعد . رأى صورة أبيه داخل إطار نحاسى فوق المنضدة . طربوش عال . شارب مبروم . صدر عسكرى بارز . لواء عبد الرازق صديق . كأنما يرى هذه الملامح ويقرأ هذا الاسم للمرة الأولى ..

ماذا أفعل .. تساءل وهو فى الخارج . توجه للقسم . لم يجد النوبتجى فى مكانه . توجه إلى الحجز فوجد العساكر جالسين فى دائرة مع المشتبه فيهم يشربون الشاى الثقيل . زعق فيهم . نهضوا فى ارتباك . أخذ يسبهم بكلمات بذيئة . قلب دفتر البلاغات . سرقة حقول . سم مواشى . مشاجرات زوجية . هروب من

النفقة . كل تفاهات الحياة اليومية . هدد العساكر بالتحقيق وبالخصم من مرتبهم . أخذ يزمجر ويقلب فى الأوراق . رفع رأسه . اكتشف أنهم مازالوا واقفين فى طابور . خليط من العساكر والفلاحين وأكواب الشاى فى أيديهم . أوشك أن يضحك . أشار لهم أن ينصرفوا وبقى السؤال يلح عليه .. ماذا أفعل .. ؟

سار للحظيرة . نظر إليه الحارس بدهشة . كان الجواد مستغرقًا فى النوم وهو واقف . امتطاه ولكزه بعنف . صفع الهواء البارد وجهه وبدت البلدة مثل كلب مسعور . والنخل يتطوح ويصدر أنفاسًا عميقة . كان يعرف أن النهر يتأهب فى هذه اللحظة ليلقى بالجثة السادسة . وأن القرية تتسمع دبيب قلبه ووقع أقدام الجواد . لكنه سار . دخل الشارع الرئيسى ورأى النخلات الثلاث . وصف البيوت الساكنة المغلقة . وقف أمام البيت . تلبث برهة يجمع كل أشتاته .. اقترب بالجواد وركل الباب بطرف حذائه . دوى الصوت وسط الفراغ . فكر . لن تجد فى نفسها الشجاعة حتى تفتح . على أن اقتحم الباب .. ركله مرة أخرى . سمع حركة . صرخة فزع قصيرة . بعد قليل فتح الباب ببطء . أطل وجهها فى إحدى يديها « المسرجة » مصباح غازى صغير مرتعد . وتضم بالثانية أطراف الشال الأحمر حول وجهها .. قالت من .. ؟ .. وتوهجت ذبالة المصباح فعكست ذلك التألق الغريب .. ظلت واقفه مشدوهة بين الباب والجدار .

هبط صلاح . لف اللجام حول جذع النخلة . خطى نحوها . تراجعت . انفتح الباب على مصراعيه . تخطى العتبة وأصبحا معًا فى الداخل . مد يده وأغلق الباب . كان يلهث . وبدت هى أشد هدوءًا . وضعت المسرجة على

الفرن وشبكت أصابعها وانتظرت . اعتدل . حاول أن يخفى صوت أنفاسه ويسترد سطوته .. قال ..

– أين زوجك .. ؟

أصدرت آهة خافتة تحمل رنة الاستغراب والسخرية . سارت ببطء إلى مصباح زجاجى معلّق وأشعلته من طرف المسرجة . فرشت غطاءً صوفيًّا على أريكة خشبية وقالت بنعومة ..

– استرد أنفاسك أولا يابيه ..

اقتربت . أصبح يراها بشكل أوضح .. لكنه كرر كالببغاء .

– أين زوجك .. ؟ ..

قالت بصوت رائق لا مبال .

– البلد كلها تعرف أين زوجى . ألم يخبرك العمدة .. أو شيخ البلد .. أو سلطان ..

إنتفض . لقد فردت مخالبها خمشت وجهه . إنها هى التى تهاجم . أهوى على وجهها بصفعة قوية وهو يهدد ..

– ألا تريدين أن تتكلمى .. ؟

فوجئت بالصفعة . تراجعت مذعورة . صهل الجواد فى الخارج . لم تبك . أنزلت يدها فرأى على وجهها خمس علامات حمراء .. قال .

– الجثة الثالثة كانت جثة زوجك . أليس كذلك ؟ ..

ردت بشراسة متحدية ..

– زوجى فى ليبيا ..

صرخ . كاذبة . أمواج البحر حملت جثته منذ يومين . وقفت فى مواجهته .

أدرك بشعور خفى أنه لن يستطيع مواصلة ضربها . هدد . سوف أفتش البيت . لم تتكلم . أخذ المصباح دخل حجرة كان بابها مفتوحًا على الفناء .

سرير نحاسى . أعمدته طويلة ودائر من الدانتيلا مرسوم عليه أطفال لهم أجنحة أزاح الأغطية والمراتب . بدت الألواح الخشبية جرداء . دولاب مكسور المرآة . فتحه . تسللت رائحة عطرية رخيصة من بين كومة الملابس . ملابسها الحريرية باردة برغم نعومتها . ملابس زوجها خشنة . مغسولة ومطوية . فردها . بحث عن آثار الدم أو المقاومة . فرد ملابسها أيضًا . ألقى كل محتويات الدولاب على الأرض . أوراق قديمة وأحجبة وحلى زجاجية ، ومكحلة وزجاجة العطر ، ومناديل للرأس مزينة بالترتر .. بحث تحت الدولاب والسرير . لم يجد إلا حذاءً قديمًا .. فكر بحنق . إنها ليست بريئة .. إنها فقط امرأة قوية ..

عاد إلى فناء الدار . كانت واقفة تجتر غضبها فى هدوء . سأل بعنف .. هل هناك غرف أخرى ؟ لم ترد عليه . صعد فوق السلم الطينى . وجد غرفة صغيرة تطل على السطح محوطة بالقش وعشش الدجاج . دفع الباب . هبت رائحة عفنة . زعق الدجاج . كشف المصباح عن زلع الجبنة القديمة والأوانى الفخارية والمقاطف مملوءة بسقط المتاع . أخذ يجوس خلال كل شىء بسرعة محمومة يبقر زلع المش . ويحطم جرار السمن .. وأصوات التدمير والتهشيم تبعث داخله شعورًا غريبًا بالانتشاء .. فى أحد الأركان وجد كومة مخبأة من الملابس . فردها . ملابس رجالى ممزقة فى أكثر من موضع . ملوثة بطين جاف . لعل هناك آثار دم . سوف يثبت المعمل الجنائى ذلك .. أخذها وهو يزفر فى انتصار .. لماذا لم تصرخ حتى الآن إذا كانت بريئة حقًّا .. ؟ ..

اكتشف طاقة فى الجدار . لها باب خشبى . انتزعه بعنف . كانت محشوة

بعلب صفيح وبخرق قديمة . ألقاها على الأرض . أحس بجسم صلب تحت يديه . قبض عليه .سلاح نارى بدائى الصنع . ماسورة واسعة ومقبض من الخشب . كان فارغًا . تنهد فى ارتياح .. كانت المرأة أضعف مما توقع . خرج من الغرفة .. هبط السلم . لم تتحرك من مكانها . أخذت تتطلع إليه . ألقى إليها بكومة الملابس . هل تعرفين هذه الملابس ؟ ، قذف بالمسدس الفارغ هل تعرفين هذا المسدس ؟ .. أكمل نزول السلم . وقف فى مواجهتها الآن سوف تقصين علىّ القصة كلها . قالت . أى قصة ؟ هذه ملابس زوجى وسلاحه . إذا كنت تريد القبض عليه فهو ليس هنا . قال .. أنت التى سوف أقبض عليها . قالت . ليس لك الحق فى الدخول علىّ فى منتصف الليل . أمسك ذراعيها بعنف . وأنت من اعطاك الحق فى القتل ؟ سقط الشال القطيفة الأحمر . انساب شعرها طويلا فاحمًا يغطى جانبى الوجه والعنق وجزءًا من الصدر العارى الناصع البياض . قالت . سوف أصرخ وألم عليك البلد . سأقول إنك تتهمنى ظلمًا . هتف وهو يرتعد . قولى ذلك فى السجن أمام النيابة . تمتمت من بين أسنانها .. كنت أعرف أنك ستأتى .. لقد فهمت نظرتك عند العمدة . وفى الشارع . أنا أعرف نوعك من الرجال .. قال .. وأنا أكره نوعك من النساء وسوف أظل أضربك هنا أو فى القسم حتى تعترفى .. قالت بتردد .. أنت مجنون .. مجنون .. أهوى على وجهها بصفعة قوية . ارتمت على الأرض انطرح جسدها كله أمامه . بالغ الجمال وبالغ الوحشية . يومض داخله بالحنق والرغبة . بدائية الطين والنار ، وحرقة الشموس الغريبة والسماء السوداء التى تطبق عليها . منطرحة وساقاها منفرجتان ، وشعرها متهدل وصدرها ينتفض ، لو أنها شنقت فسوف يكون جسدها المعلق أكثر إثارة ..

كانت تمسك سكينًا . لا يعرف من أين أتت به . ؟ دمدمت بحقد . إذا لم تغادر البيت على الفور قتلتك . كان النصل يلمع . ويكتسب بريقًا من تألق عينيها الوحشيتين . قال لن تنجحى فى القتل مرتين . اقترب منها . ترددت للحظة كانت كافية ليقبض على معصمها قاومته . حاولت الفكاك . غرست أظافرها فى وجهه وهى تلهث فى ضراوة . أحس بلزوجة الدم الدافئ وهو ينفجر من جروح وجهه . أخذ يضرب يدها القابضة على السكين فى الحائط . تفجر الدم من ظهر يدها . صرخت . تركت السكين يهوى . ظلت تغرس أظافرها فى وجهه . قبض على ثوبها . مزقه بكلتا يديه فى حركة سريعة باترة . تفجر جسدها الأبيض الناصع . أدرك لماذا لم يجد ثيابًا داخلية وهو يفتش الدولاب كانت شفتيه تقبضان على فمها . وكانت تحتضنه بضراوة وحشية . اختلطت أصواتهما كالحيوانات فى النزع الأخير . يضربها ويقبلها ويضم جسدها بين ذراعيه قويًّا مشدودًا صلبًا . مثل الجدران الطينية الرخوة عندما تتشرب الشمس وتقاوم المطر والسيول . ومثل النخل يقف منتصبًا . تكوما على الأرض كومة واحدة . توسل أبوه أن يترك عنقه وكان جسد مريم مثل نبات برى جارح . والرغبة متوهجة مثل الدم ومثل النار . كان يضربها ويتخلص من ثيابه ، ويطلب منها أن تعترف ويطوى شعرها بين أصابعها ويريها المسدس والملابس الممزقة . ويزيح السكين من على الأرض ليوسع مكانًا حتى يتقلبا . يرى السقف عروقًا خشبية مغطاة بالسناج . ويتلوث بتراب الأرض ويتغطى برمادها . يرى جسد مريم . زهر القطن لحظة التفتق . يرتعش إذ يتذوق طعم الدم . ويداهمه الخوف وهو يغوص فيها وبالاشمئزاز إذ لا يستطيع التوقف .. أحد الضباع يعوى بالخارج . عواءً طويلاً متصل مثل كل أغانى الموت . والحصان يصهل .. علامات أصابعه على

وجهها وجروح أظافرها فى صدره . تمتم كأنه فى غيبوبة .. يا أمى . يا حبيبتى . لماذا هربت ؟ ضمته . وقالت يا رجلى . يا رجلى . وتحول الصوت لدمدمة وتكسر العشب وظهرت جثة سادسة .. لماذا يأتينى النهر وحدى بكل هذه الجثث .. ؟ .. إلى أى مدى يستطيل الليل وتتواصل الرغبة مع الصهيل وعواء الضبع . عندما يأتى الصباح سوف يكون ثلاثتنا – أنا وأنت والجواد – جثثًا هامدة . يجرفنا موج نهر داكن . تفجر الدم من ركبتيه ومرفقيه والأرض خشنة لا ترحم . مدت يدها وتناولت الغطاء الصوفى والتفا داخله . سين . هل قتلت زوجك حقًّا ؟ . جيم . أعرف أن سلطان هو الذى قال لك ذلك ، هو أيضًا مثلهم . سين أنت روح البلد الشريرة .. جيم . يكرهنى الجميع أمام بعضهم ويشتهينى كل واحد بمفرده . صدقنى زوجى فى ليبيا . برغم أننى لا أتمنى عودته . سين . هل تكرهينه ؟ . جيم . مثلما أكره كل شىء فى هذه البلدة . حتى نبرات الكراهية تشعل داخله الرغبة . فمها ملتهب وجسدها يفح نارًا . يتقد كل الحطب ويصبح الغضب رغبة والرغبة هوسا والهوس ظمأ جارحا . زعق بهستيرية .. أنا متأكد من أنك قتلت زوجك .. بيدك . أو بالاتفاق مع آخرين . لا أستغرب أن تضاجعى كل قطاع الطرق ومطاريد الجبال . أجهش أبوه فى البكاء . رأى شبحًا غريبًا لامرأة تضع زهورًا فوق قبر . والأشواك تخز وجهه وصدره قال أبوه . كنت أريد أن أصنع منك رجلا . أجهش صلاح أيضًا فى البكاء . قالت مريم جزعة .. لماذا تبكى .. ؟ .. نهنه مثل طفل صغير تكوم على صدرها ، وتفجرت داخله كل الأحزان الدفينة . هذه مرته الأولى التى يضاجع امرأة . ومرته الأولى التى يبكى فيها على صدر امرأة .

همس وهو يهذى . لماذا تركتنى .. ؟ . لماذا هجرتنى وأنا صغير . لم تعطنى

سوى المرارة والإهانات المتصلة .. أعطتنى فى الأحلام زهورًا من الشوك . ودفعت فى اليقظة ثمن متعتها فى كل مكان غريب معى رجل غريب . لم تتذكرنى يومًا واحدًا . لم تبعث لى تحية واحدة أو رسالة واحدة . كذلك لم ينس هو .. لم ينس أبدًا ..

ضمته مريم إلى صدرها أكثر . أخفى رأسه وهو يبكى ويتمتم بكلمات غريبة يتحسس شعرها ويبحث فى بطنها عن مكان له . تقابل وجهاهما أخيرًا . أدرك لماذا فكر أنها ليست منهم . لماذا سار خلفها بالجواد حتى يرى وجهها وتذكر الصورة المخبأة فى درج أبيه . مرة واحدة رآها . ولم ينسها .. نفس الوجه . العينين . الأنف . الشفتين . انسدال الشعر . انحناءة الرقبة . إنسياب الكتفين .. قالت إهدأ يا حبيبى .. أنا مريم .. مريم الصافى . كان موقنا من أنها تكذب . إنها تحاول قتله مرة أخرى . تناول السكين الملقى على الأرض . قبل أن تدرك ويدرك ماذا سيفعل . غيب النصل اللامع فى صدرها . صرخت فى فزع ودهشة . ارتدت بجسدها العارى . انفجرت نافورة من الدم القانى الدافئ . حاولت أن تبتعد . أن تنهض . غيب النصل فى ظهرها . سقطت عاجزة تحشرجت صرختها وظلت عيناها تحدقان فيه . كانت بطنها ناصعة . أخذ يطعن وكل طعنة نافورة من الدم الأحمر . وكل طعنة شهقة رعب وانتشاء .. والصرخات تتحشرج وتتضاءل وتذوب .. كف الجواد عن الصهيل والضبع عن العواء وهمد الجسد الأبيض ..

كان هادئًا وديعًا مثل طفل حديث الولادة . يتنفس بهدوء ويتحرك بنعومة . جمع ملابسه من كل الأركان . ارتداها بتمهل . نفض التراب العالق . أعاد تلميع النجوم والأزرار النحاسية . لف الجسد فى الغطاء الصوفى وحمله . رأى

عينيها الجاحظتين للمرة الأخيرة . فتح الباب .. كان الجواد يأكل العشب الموجود بين جذوع النخل . والبلدة نائمة . والقمر متنائى البعد . وضع الجثة فوق ظهر الجواد . تدلت رأسها ويداها فى جانب . إنسدل شعرها حتى لمس الأرض . تدلت ساقها فى الجانب الآخر . امتطى صلاح الجواد . سار ببطء شديد دق الأرض فى تتابع هادئ .. حتى أنه سمع حفيف شعرها وهو يتصاعد كالهمس الغامض .. حتى بدا النهر . والجبل الغربى تحت ضوء القمر مثل كومة من الجثث البيضاء .. وقف الجواد على الحافة وسط العشب البرى وتحت أغصان الصفصاف . دفع صلاح الجثة . هوت وسط الماء . أحدثت صوتًا مكتومًا . اهتزت خطوط الضوء بشدة وتكسرت .. تتابعت الدوائر .. أخذت تتسع تتسع حتى تلاشت . انتظمت الموجات وانطبع القمر كاملا واضحًا .. ومضى النهر ..

١٩٧٦

المماليك يعودون خلسة

فى منتصف الأسفلت وقفنا .. أشارت سامية للمدينة . قالت كل شيء يرعبنى يبعث داخلى شعورًا مثل البكاء ومثل الجوع . كل مرة أراها كأنها المرة الأولى وكأنه إحساس الرعب الأول . معًا كنا فى منتصف الأسفلت . غاية فى الغربة والتباعد . قلت يا سامية أنت حزينة أكثر مما ينبغى . وسرنا قليلا قالت ، نلتقى فى المساء . قلت نلتقى فى المساء . وافترقنا ..

أرى المدينة أمام عينى . عمارات وحوارى رطبة . أشمها . رائحة اللحوم الفاسدة والكشرى وحمص الشام . أسمعها . صرير عجلات الترام . احتضار طيور مذبوحة . لكننى أغمض عينى فلا أرى إلا صحراء ممتدة قاحلة . إننى أكره النوم ولحظة الإظلام . وأخشى ركوب الأتوبيسات المزدحمة حتى لا يسمع الجميع ما يضج بداخلى ..

وأشهد أن المطر يكون فى أول الشتاء رائقًا وفى آخر الشتاء يكون مائلا للاخضرار ، وبه بعض العفونة . يقطر فى الكوب الذى أمامى .. كأن هذا الشاى الأخضر هو بقايا الشتاء الذى لا ينتهى ..

المقهى خال .. لكننى لم أسمع صوت المعلم « نايف » وهو ينادينى أخذ

يلكزنى بمبسم الشيشة حتى انتبهت إليه . قال وهو ينفث دفقة كبيرة من الدخان ..

– أريدك فى أمر هام ..

تناول آخر رشفة من الشاى وبصق التفل ..

– ذهبت إلى حجرتك . ذهبت إلى خطيبتك . لم أجد أحدًا ، الأمر هام فعلا ..

– ... ...

– معى فص أفيون . سوف نؤجله لما بعد عودتنا . مشوار بسيط داخل « درب الأنسية » .. مقهى ضيق . حارة ضيقة . أناس لا يكفون عن الحركة والتكاثر وسط هذا الحيز البالغ الضيق يتنفسون فتتلوث الجدران . نقوش غائرة . أياد مبتورة . أوعية قديمة . ثم يأتى المساء أعرف ذلك عندما يخرج « الحاج زينهم » من دكانه حاملا قدر « حمص الشام » الضخم ويلقى بمحتوياته لأبعد ما يستطيع فتتناثر الحبوب الصفراء – كهرمان عطن – بين شقوق أحجار الطريق أعرف ذلك أيضًا عندما تقسم مئذنة القلعة الشمس إلى نصفين . وتتسلل الأشعة خلال شعر سامية دون أن تعطيه لونًا محددًا . وتعود العصافير متعبة فلا تجد عشًا إلا فى الزنازين الرطبة .

حمل الجرسون الشيشة والصينية . دفع المعلم نايف الحساب . وسرنا . أرض رمادية سحب سوداء . درب جانبى . غبار أطفال يلهثون . عاود نايف الإلحاح .

– لن تندم لأنك أتيت معى ، هذا سرى الذى لم أقله لأحد .

رأيت أن هذا البيت على وشك الانهيار . وهذه الوكالة . وهذا المسجد

القديم رأيت أن المشربيات المتداعية يسكنها أناس وفئران كاملو العدد . يتقاتلون على الفتات فتتصاعد رائحة الدم الطازج مختلطة مع رائحة الطبيخ والغسيل بالصابون الرخيص . رأيت هذا فقلت أود الصعود للجبل .

سر نايف لأننى تكلمت أخيرًا قال :

– مازال الوقت مبكرًا للصعود انظر .

أشار للأمام .. شخص يجلس على عتبة أحد البيوت المتهالكة .. جلباب فوقه جاكته داكنة . كوفية حمراء منقطة يحوطها عقال جمع من الأطفال المتسخين يلتفون حوله . لم يبد عليه أنه أحس باقترابنا . بوقوفنا أمامه . ملامح عجوزة . لحية مدببة . ابتسامة بين السخرية والذهول . يتأمل الأطفال ويشم الغبار ويرصد كل شىء . قال نايف مذهولا ..

– ما الذى جاء به إلى هذا الدرب المنعزل .

فكرت . إنهم كثيرون حتى أنهم يوجدون فى كل مكان ..

– هل نتحدث معه ..

– كلا هو يعرف طريقه جيدًا بلا شك ..

انتهى الدرب الجانبى وظهرت حافة الجبل .. دخلنا تحت تعريشة من الأخشاب القديمة . أحاطتنا جدران متهدمة ملطخة بالسناج منشور عليها جلود حديثة السلخ لم يزل الدم المختلط بالملح يسيل فوقها فى خطوط متعرجة . بعيدًا فى حضن الجبل تلتف ظلال أناس حول نيران متفرقة . تحمل سامية المصباح الغازى وتهبط أمامى تحذرنى من الدرج المكسور . فى فناء الدار تزداد حدة رائحة دورة المياه الموجودة تحت السلم حتى أن رغبتى فى لمسها تموت . نتبادل تحية فاترة ونفترق .. قال نايف ..

– لقد أحطت للأمر . هناك فانوس فى مكان ما .. حركته الدءوب وحفيف ثيابه يبعثان الاضطراب فى الظلمة التى تحيط بنا . وتساءلت :

– هذا هو المكان ..

– أجل .. ولكن علينا أن نجد الفانوس أولا ..

تلمست حائطًا واستندت عليه .. نايف يشعل أعواد الثقاب والبرودة المتكاثفة تطفئها مع كل توهج ألمح جرمه الضخم وهو يفتش بين الأحجار . يسطع المكان فأشم رائحة المقابر . هتف نايف ..

– وجدت الفانوس .

اشتعل عود آخر.رأيت الفانوس . ونايف يدخل يده ويشعل الذبالة.دبت فى المكان حركة الظلال لكن الظلمة بقيت رابضة أمامنا والرائحة الثقيلة تتكاثف قلت فى ضيق ..

– ماذا تريد .. لماذا جئت بى إلى هذا المكان ..

رفع الفانوس . قال فى هدوء ..

سوف ترى كل شيء .

الهواء يرسل صوتًا خافتًا .. تأوهات متواصلة . الفانوس يصنع دائرة فى الضوء تكشف عن خراب . تغوص أقدامنا فى تراب ناعم .. ونتخطى عروقًا خشبية منخورة .. سقوفًا مائلة.أوانى فخارية .. بقايا أثاث . تشدنى كتلة الظلام برغم تربص الخطر .. من هذا المكان تمتد جذور الحطام . بوابات متداعية . فتحات تؤدى إلى مأوى غامض تحت الأرض .. نايف يدمدم . والضوء يرتعد : هذا سرى . اسأله : أين نحن .. فلا يجيب . نواصل السير يختفى الحطام

فجأة وتصبح الأرض مستوية ممتدة رائقة .. قلت مدهوشًا .. هذه أرض مزروعة ..

– كلا ..

خيل لى أننى أرى نباتات غليظة تشق الأرض . اشرت فى حيرة خائفة ..

– ولكن هذه .

قاطعنى بصوت باتر : هذه عظام آدمية .

– ماذا .

–تحسسها بنفسك.انحنيت مددت أصابعى .. لمسة خفيفة . برودة . كانت صلبة ناعمة . تضوى تحت تأثير الفانوس وتترك على أطراف أصابعى طبقة من الغبار الناعم . قلت مذهولا ..

– إنها عظام فعلا .

لوح بالفانوس . تحركت دائرة الضوء . اكتسى صوته بنبرة غريبة :

– يبدو أن القيامة ستقوم فى هذا المكان .. كنت ألهث خلف دائرة الضوء . خلف رائحة الموت المؤكد . والعظام تتشابك وتخترق الأرض . ضلوع نحيلة متماسكة واحد فوق الآخر ، فقرات الرقبة متراصة أيضا دون رأس . سيقان ممددة . مرتبة الأعضاء فى الأماكن الصحيحة ، ذراع بارزة بكل طولها . الأصابع المدببة تشير إلى شيء بعيد . جماجم مرفوعة فى مواجهتنا تتابعنا من خلال حدقاتها الفارغة . هياكل كاملة . مسجاة أو مستندة إلى الصبار . كأن كل شيء فى انتظار حدوث شيء ما . كلمة أو إشارة غامضة حتى تدب فيها الحياة .. كنت مذهولا ..

– أى أناس هؤلاء .. أى مقبرة تلك .

نايف يسير ، لا أقوى على مواجهة ما تكشف عنه دائرة الضوء .. لا أقوى على إغماض عينى .

قال : انظر ما سيأتى . سيوضح الأمر قليلا ..

رفع ذراعه فاتسعت دائرة الضوء . إزدحم المكان بأشياء أكثر غرابة . سيوف صدئة . مقابضها متوهجة .. رماح طويلة مشروعة الأسنة ، دروع حديدية متكومة فى تلال متفرقة ، ثياب . عباءات حريرية موشاة بالقصب وخيوط الذهب . أردية . سترات . عمامات ضخمة . زرد متداخل الحلقات . قمصان نحاسية . يعلوها الاخضرار ، خوذات ذات زوائد حديدية لحماية الأنف والعينين . أحذية طويلة الرقبة . صنادل مطعمة بالمسامير .. خطافات وكرابيج ، وسهام صغيرة ، وخناجر مدببة الأطراف ، وسروج . ساكنة مترببة . يفوح منها عفن ثقيل . تنبض أيضًا بلحظات الترقب . كنت أدور حول نفسى .. ونايف جالس فوق أحد الأحجار . يرقبنى . سألنى .. هل فهمت .. ؟

– من هؤلاء الناس .. ؟

– ألم تفهم . ألم تشاهد هذه العظام البيضاء . الملابس . الدروع . السيوف . كل ذلك لم يكن موجودًا من قبل . لقد برزوا من جوف الأرض شيئًا فشيئًا حتى ازدحم المكان بهم . من الأفق إلى الأفق . انظر هذه الناحية سوف تشاهد هيا كل من نوع مختلف إنها الخيول .. خيولهم .. مجمعة ومرتبة وتنتظر ، كل ذلك برز من جوف الأرض .. من كل القبور القديمة . العظام أولا ثم الملابس . ثم السيوف .. كلها فى الانتظار .

– من هؤلاء الناس .. ؟

– إنهم المماليك .. إنهم يستعدون للعودة .

انتصب واقفًا . بدا جرمه الضخم والجبل الذى خلفه متساوى الطول . أشار إلى كل الإتجاهات .

– لا يكفون عن الزحف . كانت العظام تبرز على حواف الجدران المهدمة . والآن تملأ كل الخلاء . وسوف تزحف بين الناس وتملأ البيوت ..

اكتسب صوته عمقًا غريبًا تجاوب مع الصدى الخافت كأنه نبوءة مؤكدة ..

– هذا جنون .. إنك تهذى .

–كل هذيانى أمامك تلمسه بيدك واهذ معى ..

انطفأ المصباح . أخذنا نتعثر عائدين . كنت ألهث ونايف يتبعنى . أسمع غمغماتهم تتعالى . تتنادى بألقاب التضخيم . والكلمات التركمانية تستعيد حيويتها .. حمحمات الخيل ، وصليل السيوف ، والبيادة يجلون أطراف الأسنة ، ويربطون السروج ، ويصفون السهام . قال نايف .. لقد تركنا الفانوس خلفنا ولن نستطيع العودة . واصلنا التخبط بين الأنقاض . سمعت صوت ارتطام جسد نايف بالأرض . ساعدته على النهوض . لم أتبين ملامحه لكنه كان يتألم . ظللنا متماسكين صامتين وأنفاسنا تتردد فى صعوبة . اجتزنا الدروب الضيقة والخرابات . برز الجبل وكنت أعرف طريق وسط دروبه . مررنا ببقعة من الضوء فرأيت الدم يغطى جبهة نايف . هبت أنفاس الجبل . رائحة الصخور المفتتة والصهد . صعدنا. ساعدته على الجلوس فوق أحد الصخور ..

– هذا خيال ..

قال وهو يتحسس جبهته .. لماذا ترتعد إذن .. ؟ .

—كيف عرفت الأمر ؟ .

— شهور طويلة وأنا أرقب بروز العظام . ظل الأمر غامضًا . كل يوم أجلس الساعات الطويلة أراقبها وهى تشق الأرض واسمع التقلصات الخشنة .

أدخل يده فى جيبه . حرك أصابعه سمعت خشخشة السلوفان . مد يده . ناولنى قطعة وأخذ لنفسه القطعة الثانية . قلت .. إنها كبيرة .

— لن تساعدنا حتى ولو كانت الضعف .

وضعتها فى فمى . أحسست مذاقها المر اللاذع وهى تلتصق أسفل لسانى .. توقفت عن الكلام . وكل منا يحرك فكيه ببطء . فكرت . قد تمدنا ببعض الشجاعة بدأت عملية الذوبان وانتشرت المرارة الرائعة . أصبحت أضواء الجبل أكثر قربًا وتألقًا . هبت ريح رخية فتناثر شعر سامية مثل كلمات التمائم . وماتت الشمس التى أعشقها وأخافها — فى مغارات المقطم ، والحمامات فى الحوارى تشعل وقودها فيتصاعد البخار المرتعش ، يلف أجساد الرجال فى الليل ، وأجساد النساء فى النهار — ويمضى بينهما محملا بالخصوبة . صانعو الحصير يجدلون العصى الملونة ، ويرسمون خلال النسيج صورًا للكعبة ، وأشكالا لطيور ممزقة الأجنحة .. رواد المقاهى الفقيرة يتباحثون فى تدبير مصارعة تفوز فيها كل الديوك الهندية المتألقة . حتى العظام تبرز ناصعة الألوان ، وهدير المماليك ينساب مختلطًا مع غناء القيان ودق دفوف الجوارى وضحكات سامية .. وما أقل ما تضحك سامية وما أشد تألق عينيها . تمد يدها وتمسح جبينى .. غداة يوم متعب . مساء حلم غريب هل حان أوان الانصراف .. ؟ درب ضيق . غبار . صراخ العرسة وهى تمرق .. يجاوبها نباح الكلاب المرتعشة . لم يعد الرجل العربى جالسًا . المقهى أغلق أبوابه أضع يدى على صدر سامية . أحاول تقبيلها فتنفلت

منى وترشقنى بوردة حمراء . أرفع قدمى من الوحل . يغمغم نايف وينصرف . يهتف رجل من أقصى الحارة « وحد » فأرد عليه بخوف « لا إله إلا الله » ، يشهر الرجل سيفه ويرشقه فى الجدار ، ثم يخلع عمامته ويعلقها على المقبض .

فناء الدار . الدرج المنكسر . غرفتى . الفراش المشعث والكتب المتناثرة . الصور الملصقة فوق كل جدار . العالم الصامت الكئيب المعادى فى أغلب الأحيان . صورة سامية تحاول الابتسام . لو أننى نظرت تحت السرير لرأيت العظام الملونة . النافذة مفتوحة تكشف عن المئذنة المكسورة التى تسكنها طيور سوداء .

سوف أنام حتى تشرق شمس جديدة لم تشرق من قبل . أحلم بمدن تبنى من جديد بشوارع جديدة تبدأ من الصحراء .. وتنتهى فى البحر .. صنعت كوبًا من الشاى ، أخرجت أوراقًا قديمة . قصائد لم تتم ورسائل لم ترسل . وتذكارات فقدت تواريخها . عالمى العارى الضلوع .. لكن الطيور النائمة فوق المئذنة المكسورة تصرخ .. والأطفال يختنقون فى البدرومات .. والربوع القديمة .. أى بعث هذا .. ؟ ..

تعالى صوت رفيع ينادينى . نظرت من النافذة . محمد شقيق سامية الصغير يقف وسط الشارع ويشير بزراعة بخوف ..

— أبى وأمى يريدانك .

— ماذا ؟ ..

— انزل سريعًا .. سوف يقودنى هو أيضًا إلى مقبرة أخرى .. هبطت . كان مفزوعًا . ثمة شىء حدث لسامية .

ليلة مشبعة بالموت تحمل فى كل لحظة اكتشافًا مروعًا . الأب والأم

يكرهاننى ، ولكن هل تحبنى سامية حقًا . ؟ أى شىء يحمل لى قدرًا من التآلف . الحارات التى عشت فيها أيامى القلقة . البيوت الخربة . النجوم المختلطة بنفايات المجارى .. لم نكن نسير فى الطريق إلى البيت .. ظللت أدندن . قال فى توتر : ألا تسألنى إلى أين نحن ذاهبان .. ؟ ..

– إلى مقبرة أخرى – هذه ليلة العظام العارية الزاهية الألوان .

باخت الأغنية عبرنا بوابة القاضى .. قبة قلاوون الضخمة تحتل السماء .

العظام تصعد مع النباتات المتسلقة فوق واجهة البواكى . اتجهنا إلى قسم البوليس . رمقنا العسكرى بريبة . صعدنا الدرج الحجرى . عبرنا ممرًا ضيقًا . دخلنا غرفة جانبية . زادت شدة الضوء . كان الضابط جالسًا . والأم تبكى فوق أريكة جنب «التخشيبة» والأب مستند على الحاجز . نظروا كلهم إلىّ . اتهمونى للحظة خاطفة . دق عسكرى الأرض بحذائه ..

زعق الأب والأم بصوت واحد .. أنت .. رمقنى الضابط بازدراء مبالغ فيه . سأل : أنت خطيبها .. ؟ .. – ماذا حدث .. ؟ .. – منذ متى تمت خطبتكما .. ؟ ..

– منذ أكثر من سنة ، ماذا حدث ؟ .. زعقت الأم فجأة لقد اختطفوها ..

خلف الضابط مباشرة لمحت أحد المماليك جالسًا فوق سلة المهملات . ثيابه المطرزة بالقصب وخيوط الذهب تتألق . عمامته ضخمة وشاربه الطويل يكاد يقسم وجهه ، كان جالسًا فى هدوء واضعًا سيفه على ركبتيه ، ويبرم شاربه فى سرور . بحلقت فيه مدهوشًا . التقت أعيننا . غمز لى بإحدى عينيه . قلت إننى لا أفهم . قال الضابط بلهجة رسمية .. المدعوة سامية عبد التواب البالغة من

العمر اثنين وعشرين عامًا تغيبت عن بيتها منذ الأمس . هل لديك معلومات عن مكان وجودها .

– لا أعرف .

– لقد بحث أبوها وأمها فى بيوت الأقارب والأصحاب . المستشفيات . والأقسام . ولم يُعثر لها على أى أثر .. هل لديك معلومات ..

– لماذا لم يقل لى أحد . لماذا لم يخبرنى أحد من لحظتها ..

– هناك من يقول إنها اختطفت . إختطفها أشخاص مجهولون فى سيارة مجهولة . هل لديك معلومات .. ؟

– من الذى يقول ؟ .

– شهادات غير مؤكدة . أبوها وأمها يقولان إنه لم تكن فى البيت أى خلافات . هل لديك معلومات عن سبب اختفائها .

– لم يكن بيننا أى خلافات .. نظر الضابط إلى الأب والأم حتى يرى صدى إجاباتى . زعقت الأم فى هيسترية . أريد ابنتى .

حاول محمد أن يهدئها ، جلست فى الجانب الآخر ، نهض المملوك .. سار وهو يتمايل . استند فوق الحاجز الخشبى ، نفخ فى وجهى . أنفاسه ثقيلة الرائحة . حرك فكه قليلا ثم بصق فوق المكتب . بصقة سوداء من أثر التبغ الممضوغ .

قلت .. ماذا سنفعل .. ؟ .. قال الأب بمرارة غريبة .

– أنت السبب .. لقد ضاعت منا ومنك . أنت لا تستطيع المحافظة على شىء .

قلت للضابط هل أستطيع الانصراف ..

– هل ستبحث عنها فى أماكن محددة .

— لا أعرف أين أذهب أو من أين أبدأ .. ؟

ولولت الأم . فقدتها وأنت السبب .

قفز المملوك من فوق الحاجز الخشبي بحركة رشيقة برغم امتلاء جسده . أخرج سيفه وأخذ يحركه فى الهواء . حركات سريعة ليجرب مرونة يده . ثم وضعه فى الغمد مرة أخرى .. أشار بيده فى حركة متعالية : حضراتنا أمير الجيوش البرانى . تعال معى إلى مغارات المقطم ، الليلة يتألق نجم السعد .

قال محمد نريد أن نذهب معًا نبحث معًا .. ضحك المملوك فى انشراح .. عفارم عليك .. هذا ولد جميل .. هيا نأخذه معنا للمغارة .

صرخت .. كلا .. لا أريد أحدًا . هبطت الدرج الحجرى . وقفت وسط ميدان القاضى . أحسست بالعطش الشديد . قال المملوك ليس لك فى الطيب نصيب ، وعاد إلى داخل القسم .. كانت قبة قلاوون مثل خفاش مفرود الجناحين . والسماء القاتمة مكنوسة صرخت .. أين أنت يا سامية .. ؟ البيوت جنب البيوت .. وأحجار الطريق جنب أحجار الطريق . وأنت بعيدة . الربوع القديمة تهوى وأضلاعنا تتعرى والطيور تحتضر فى أثناء نومها .. فأين يمكن الذهاب .. ؟ ..

جريت فى الطريق إلى بيتها . سوف أجدها فى انتظارى . واقفة على أول السلم تمسك المصباح الغازى لتحذرنى من الدرج المكسور .. دفعت باب البيت . صعدت فى الظلام . تعثرت فى الدرج . شممت رائحة دورة المياه . وجدت الشقة مفتوحة . خالية . المصابيح السهارى ترتعد . غرفتها الضيقة . مشربية خشبية . دولاب فى الحائط . الفساتين التى أحفظ ألوانها . وأحفظ أماكن الرتوق الخفية فى كل منها . السرير الضيق . تزداد درجة ضيقه ، كلما

شاركها فيه أخوها محمد .. أدوات الزينة الرخيصة .المرآة نصف المعتمة . بقايا كتب الدراسة . بقايا هدايا كنت قد أحضرتها .. أحس بأن ثمة من يتنفس . بتردد الأنفاس الباردة . لكن لا أحد . فتحت الدولاب . نظرت تحت السرير .. رأيت العظام بارزة . تركت الغرفة هبطت السلم . تعثرت . شممت الرائحة .. المرة الأخيرة التى رأيت فيها سامية . كنا على النيل . كنت غريبًا تحت الشمس وأمام النهر . الغائض . الجرسون يشبه أمير الجيوش البرانى . يبتسم . يحضر مشروبات باهظة الثمن ناقصة السكر .. ساعة كاملة بقيت فيها وحدى . أرقب طير الماء وهو يحلق فى بطء غريب دون أن يحرك جناحيه . جاءت سامية متأخرة لم تعتذر .. جلست . هتفت فى ضيق . ما فائدة المدارس والتعليم . أدركت أننا سوف ندخل معًا إحدى دوائر العذاب . رفعت يدها بالورقة التى كنت احفظ شكلها جيدًا .. دبلوم التجارة المعظم . منذ الصباح . منذ كل الصباحات وهى تدور . دكاكين . وفنادق وخانات . ووكالات . عطارين . بقالين . باعة الأقمشة والأحذية . ومهربى العملة . خلعت حذاءيها فجأة . انتشرت رائحة قدميها . عرق وعفونة ثقيلة . اختلطت بكل ذرات الهواء الذى يهب من ناحية البحر . شمها الجرسون . وعمال البوفيه . بائعو الفل الذابل . والمراكبية . سائقو التكسيات وعشاق المدارس . كنت أرى ذرات الرائحة الداكنة وهى تتلوى فى خطوط صغيرة . كانت تتكلم . الحارة رطبة والبيت ضيق . ووعودك بالغة المشقة . قلت . البسى حذاءك . وهيا ننصرف هذا مكان نظيف لدرجة الاختناق . صرخت فىّ . أصعد للجبل . كل الأفيون . تحدث مع الشيخ عاشق الصخر . لعله يفيدك بحكمة ما . كانت أحلامها قاسية . والشيخ يشكو لى من أحاسيس غريبة دنسة . وكلما التف حوله المريدون تزايد هذا

الإحساس وأنه فى صميم الحضرة عندما يرتفع إيقاع الذكر وتذوب الأجساد وجدًا يلهث فى جوع ، ويتمنى أن يضاجع كل مريدية وسط ارتفاع الأدعية الحارة .

ماذا أفعل يا سامية وأين أجدك .. ؟ .

جامع قلاوون أمامى مرة أخرى .. دفعت الباب الخارجى . زعقت فى الطرق الممتدة . يا سامية . طارت الخفافيش وتمزق نسيج العناكب . فتحت باب البهو . كان المنبر متحطمًا . مائلا إلى أحد الجوانب . والثريا متدلية خالية من المصابيح . الأثاثات المنزلية تزحم كل الزوايا وتسد الطريق إلى القبلة . ما بين الأعمدة الرخامية تمتد الحبال تحمل الملابس المغسولة . ترتفع الملاءات حتى تصنع حواجز بين ركن وآخر هل تكون سامية هنا .. ؟ .. أخذت أزيح الملاءات وأخوض وسط الأجساد النائمة سرير منصوب ذو قوائم مرتفعة . رجل وامرأة هامدان على الأرض . حصر ممزقة ، وأطفال نحاف متداخلو الأعضاء كل فى الآخر ، لعل هناك قدرًا ضئيلا من الدفء . لكن الأحجار القديمة لا ترحم . تهمى من خلال النقوش والآيات المحفورة برودة قاتلة . أود أن أصرخ فى الجميع حتى ينهضوا . هدمت بيوتهم عبثًا . استكانوا فى صحون المساجد عبثًا . أزيح الحاجز التاسع والعاشر والحادى عشر . أطفال ينامون وعيونهم نصف مفتوحة صبايا لا يسترهن شىء.رضيع يتبول على نفسه ، وأمير الجيوش البرانى يعانق امرأة . والمرأة تبحلق مذعورة . أهذه عين سامية ؟ أمير الجيوش البرانى يرفع رأسه وينظر إلىّ . يقهقه فى سعادة والضحكة ترن وتخترق كل الأروقة . غمغم الأطفال وهم نيام . ظلت يدا المرأة فوق كتفه الأبيض .. جريت . عبرت البهو . والممر . كان الرجل الذى قابلته فى أول الليل جالسًا على

الباب الخارجى قلت وأنا الهث هل رأيت سامية ؟ أشار على طول المدى . جريت حتى باب الفتوح . رجعت إلى بيت القاضى . سألت الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم . فى « حوش قدم » جدلوا من أسئلتى حصيرًا ملونًا ورسموا طيورًا تعانى الوحشة . صانعو الحلوى أخرجوا صوانى الحلوى والبسبوسة محترقة الحواف . أوقفت الترامات المتهالكة ، دخلت الربوع المجهولة والزوايا التى تسكنها العفاريت لا الشحاذون جابونى ولا شيوخ الحارات ترفقوا بى . فأين أنت يا سامية : فى أى مستشفى ؟ فى أى شقة مفروشة ؟ فى أى سيارة ؟ فى أى صحراء ؟ فى أى نهر . فى أى كباريه . بين أى أيدى ؟ فى أى الأزمان تعودين ؟ بأى قلب أراك ؟ نائمة مستيقظة ؟ مستمتعة بالحب ؟ طائعة ؟ مجبرة ؟ مغتصبة ؟ شاعرة بالإهانة ؟ كانت السيارة تعبرنا معًا . كنت تقولين لى . انظر إن لهم القدرة على الحلم ، تقولين أحلامنا مثل ثوب ممزق أقول . لم أطلب منك أن تحلمى بى . تقولين : اكتب قصائدك العنيفة ، أحلم بالدمار الشامل . القصائد . حبر وورق . العمارات خرسانية وسيارات الصلب . قلت هل تحبيننى ؟ قالت : أحبك لكننى لا أستطيع أن أغمض عينى شممت رائحة قدميها خارجة من كل الشقوق القديمة . سمعت صوتًا . دخلت الربع الذى كان أمامى وجدت « نايف » معلقًا فوق حائط . ويده مغلولة والدم ينزف من كل جسده . رآنى . قال بصوت متحشرج لقد عاقبونى لأنى أفشيت السر . قلت عاقبونى أنا أيضًا واختطفوا سامية . قلت سوف أعود للبيت . سأنام وأغلق الباب من الداخل . سوف أكف عن كتابة الأشعار . ليس هذا زمننا .. انصرفت منكس الرأس . مقهورًا طول الطريق أسمع الصهيل . وأرى الغربان تحوم . تنتظر أوان سقوط الموتى . هل يمكن أن أغلق حجرتى واكف عن سماع ما يدور فى

الخارج : يا سامية . انت ترين أننى حتى لا أستطيع أن أحلم بك . المماليك يطاردونى ويوقعون العقاب بأصدقائى . زعق الفجر من فوق كل المآذن العتيقة . لم يجرؤ أحد على الصلاة . كانت المساجد مزدحمة بالنائمين : بدت تباشير الضوء الرمادى : هل يجرؤ أمير الجيوش البرانى على مواجهتى تحت ضوء الشمس . دخلت البيت . وقفت ألهث فوق الباب . تطلعت للأمام . كانت سامية جالسة على السلم رفعت وجهها ببطء ، حدقت فىّ بنظرة ثابتة ، كأنها لا ترانى ، لكن وميض عينيها خلق بيننا ما يشبه التعارف . الشعر الطويل منسدل فوق كتفيها ، لم يكن ممزقًا أو مشعثا. بل كان يلمع بوهن تحت الضوء الرمادى . ووجهها الصغير المحدد التقاطيع لم يكن باكيًا ولا مغتصبًا . كان هادئا . مستسلمًا . كانما انتهت فى التو لمسات خلقه . حول عينيها كانت دائرتان من السواد تكسر حدة هذا الصفاء. اقتربت : جلست على درجة أسفل الدرجة التى تجلس عليها . يدها موضوعة فوق ركبتها ويفصل بينهما الفستان الداكن . كانت دبلتى الذهبية فى أصبع يدها اليمنى . لمست ثوبها .

قلت : ثوبك ممزق خيل إلىّ أننى لم أسمع صوتها . لكنها قالت فى هدوء : يبدو ذلك .

كنت أحس بجفاف حلقها .

قلت : هل أذاك أحد ؟

ردت بصلابة : أجل .

–كم كانوا ؟

– أربعة :

– مصريون ؟ .

سعوديون ، ليبيون ، سوريون .

– أى شىء .. لا يهم .

قلت ببلاهة .. هل قاومت .

تنهدت . خيل إلىّ أنها ستبكى ، لكنها لم تبك ، كنت أخشى أن أطيل الأسئلة حتى لا تصمت . وكنت أريد أن أعرف كل شىء .. لماذا لا تبكى .. لماذا تبدو بمثل هذا السكون .. هل نصعد .. صعدنا .. جلسنا .. فوق مقعدين متباعدين .. هل أنت جائعة .. كلا .. كيف حدث ذلك .. قالت أنا مخنوقة . أحسست أنها ستبكى ، أمسكت يدها فسحبتها من يدى ، قالت إنهم كانوا أربعة فى عربة خاصة . وأنها قاومت كثيرًا ، لكن الشارع كان خاليًا ، وذكرت لى اسم أحد الشوارع الغربية . سألتها ما الذى ذهب بها إلى هذا الشارع ، قالت إنها كانت تبحث عن عمل حاولت احتضانها . كان يشيع من جسدها رائحة جديدة حتى أننى أفتقدت رائحة قدميها . كنا كطفلين بالغى التعاسة قالت هل نهبط .. ؟

قلت : هل تودين العودة للبيت .

قالت : لا أدرى وأخذت تحدق خلال النافذة . اختفى اللون الرمادى وأصبحت السماء مشبعة بحمرة الشروق . قالت : إننى أكره الشمس فكرت . سوف تأتى الشمس . ويرى الجميع جثة نايف ، ويردد الأطفال حكاية سامية . وتنكشف عورة الطرقات الضيقة . عادت تردد .. إننى أكره الجميع : قلت ببلاهة وحقيقة : حتى أنا ؟ قالت بتصميم بارد أنت أولهم .. أنت أشدهم .. أنت تتظاهر بالشفقة اللعينة ولا تعطى شيئًا سوى الوعود والكلمات .

قلت عاجزًا .. لكنك كنت تعرفين .. تعرفين منذ البداية . لم أكذب

–كل شيء يكذب .. كلماتك .. أحلامك . والنوم فى العراء .. أكره البيوت القديمة . وأكره صوت الفئران . وهى تخرج فى منتصف الليل ، وأكره لدغة البراغيث . ورائحة دورة المياه الكريهة .. وحديث أمى عن الصبر .. إننى أكره مثلك كل هذه الأشياء .

– لكن الكراهية المجردة شر .

– ليست كراهيتى مجردة . إننى أكرهك على وجه التحديد ، أكره الكتب المرصوصة فى كل ركن ، وأكره الصور المعلقة فوق الجدران .

ضمت قبضتها ووقفت فى منتصف الغرفة كأنما تحاول أن تنزل فوقى لعنات مجهولة . لكنها انفجرت فى البكاء هوت على ركبتيها وأخذت تنشج فى صوت مرتفع ، إقتربت منها بتردد . وضعت يدى على ظهرها . تناولتها وأخذت تغمرها بالقبل . احتضنتها وأخذنا نبكى معًا .. قالت سامحنى .. أنا طفلتك الصغيرة قلت : يا صغيرتى يا حبيبتى . إننى أعرف السبب ، إنهم المماليك لقد عادوا خلسة .. إنهم يسحبون الأرض من تحتنا .. يهدمون دورنا ، ويجعلونا نهوى إلى المساجد . يختطفون نساءنا ، ويرغموننا على الغفران القهرى ، يأخذون أخواتنا ويتركوننا نتصارع حول الفتات .. يا صغيرتى لقد عادوا قالت : أنت مجنون .. قلت .. بلى أنا النبى ايليا . ونايف كان المعمدانى . والآن يمتد دمه يحمل البشارة والنذير .. تخلصت من ذراعى .. لم أعد أستطيع العودة إلى بيتنا قلت : سأتزوجك وسنعيش فى هذا المكان قالت ليس فى استطاعتى الزواج .. لم أرض بمثل هذا المكان قلت فى غيظ وتهكم .

– عجبتك الشقة المفروشة .. إذن .

– لن أتنفس هذا الهواء مرة أخرى قلت وأنا أريد أن أحسم الموقف هل تحبينى أم لا ؟ .. صرخت .. لماذا يعنى هذا المزيد من الاستسلام .

– لم نستسلم سوف نحاول .

– نحاول نحاول لا فائدة من المحاولة .. لا أستطيع مواصلة الحياة هنا بعد هذه اللحظة .

– اذهبى إذن دعيهم يختطفونك مرة أخرى:من قال إنهم اختطفونى ؟ .. قلت مذهولا لماذا حدث إذن ؟ .. رأيت أمير الجيوش البرانى جالسًا على حافة النافذة غير مبالى بنا يمسك غليونًا طويلا ويحاول إشعاله وينفث دفعات من الدخان المتقطع .. كانت الشمس تصعد من خلفه فى هدوء قاتل .. سادت لحظة من الصمت .. جلست سامية فوق الكرسى قالت .

– أنا التى ذهبت معهم .

١٩٧٥

الفهرست

رقم الايداع ٧٠١٤ / ٨٦

دار المدينة المنورة للطبع والنشر ١١٤ - شارع مجلس الشعب

من قتل مدحت العقاد؟

[illegible] المادة [illegible] من دراسة
[illegible] . في قصصه ما [illegible] الأسرار [illegible] التي [illegible] بحذق وعناية ،
وقدرة على إدراك [illegible] الكامن وراء النوع المادي في الأعراض وبنائها .

وفي هذه المجموعة [illegible] من [illegible] القصصية [illegible] ، ومن ثم [illegible]
[illegible] : من [illegible] ، من [illegible] الصغير [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] في لحظة من لحظات [illegible] للأمام ، إلى لحظة العبور المنتصر ، والعودة
بحث شهداء [illegible]

سواء كان محمد [illegible] من صورهم المرهقة
على أطراف المدينة ، أو يستنطق الأشياء في حركتها التي لا تكاد تُلحظ أو تُحس ، فإنه يفتح عينيه
كلتيهما على الواقع ، واقعنا نحن في تلك السنوات المثقلة التي ما تزال فاعلة ومتفاعلة .
تجربة قصصية متميزة لقاص موهوب وجاد ، قادر على أن يقدم الكثير

دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع

الثمن [illegible] قرش
في الخارج [illegible]